مصطفى محمود



دار العودة . بيروت

بحث في

الوجود والعدم

مصطفى محمود

بحث في

الوجود والعدم

دار العودة - بيروت

١٩٨٦

كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
تلفون : ٣١٠٨٤٠ ـ ٣١٨١٦٥ ـ ٨١٥٣٣٥
تلكس AWDA 23682 LE
ص . ب ١٤٦٢٨٤

التعرّف على ملك الملك

لو اجتمعت سلطات العالم على قلب رجل واحد لما استطاعت أن تغيره كرهاً .

ولو تحالف الحديد والنار والسجن والتهديد على سجين فى زنزانة انفرادية لما استطاعت تلك القوى مجتمعة أن تجعل هذا السجين يحب ما لا يحب أو يكره مالا يكره .

ربما استطاع السجان أن يقهر سجينه على التوقيع على ورقة بالإكراه . . ربما استطاع أن يرغمه على تقطيع الحجارة وأكل الحصى ربما أستطاع أن يقطع لسانه وينزع جلده ولكنه لا ولن يستطيع أن ينزع ذرة كراهية من قلبه أو يبدل عوطفه قهراً .

فهناك فى أعمق الأعماق روح أعتقها الله من كل القيود .

لا سلطان لأحد عليها .

حتى الشيطان يقول له الله :

« إنَّ عِبادِى لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلَّا مَنِ اتَّبعكَ مِنَ الْغاوِين » .

(الحجر : ٤٢)

والغاوون هم أولئك الذين اتبعوا الشيطان بإرادتهم وهواهم ودون سلطان منه .

ولهذا تعجز كل وسائل الإصلاح التى تعتمد على العنف والقهر والقوة .

وتفشل النظم التى تحاول تغيير المجتمعات بالوسائل البوليسية والأساليب القهرية .

لأن الحب لا يستخرج بالإرغام .

والشرف والنبل والإخلاص والرحمة والمودة لا تولد بالكرباج ولا تصنع بقرار وزارى .

وإنما هى نبات ربانى .

وينمو هذا النبات ويخضر ويزهر ويثمر حينما تنفلق البذور فى الطين ، وتخرج من التراب وتتوجه بأوراقها الخضر إلى مصدر النور ومصدر الطاقة . . إلى شمس وجودها . . إلى ربها .

حينما يصبح كل واحد فينا مثل عباد شمس يتحرك معلق الأبصار لا يغفل عن خالقه لحظة . . أينما توجه ينادى قلبه . . ربىّ . . ربىّ . . فيجاوبه الصدى مع كل نبضة قلب . . لبيك عبدى . . أنا معك .

فلا مصدر للحياة والحب والخير إلا الله .

والله يقول :

« لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا » .

(طه : ١٤)

لا حاكم غيرى . . لا فاعل سواى . . أنا وحدى الضار النافع

والمعز المذل والباسط القابض والرافع الخافض والمحي المميت .

أنا المالك وحدى

الملك والملكوت لى

والسماوات والأرضين لى

والغيب والشهادة لى

والعزة لى

والجبروت لى

والقوة لى

والشفاعة لى

أنا الذى أغير ولا أتغير

ولا مهرب منى إلا إلىّ

وكل قوتك منى وحياتك منى ومواهبك منى .

بى ترى وبى تسمع وبى تعقل ، وبى تحيا وبى تمشى وبى تهضم طعامك وتشفى من أسقامك .

أنا الذى أروى وليس الماء . . وأنا الذى أشبع وليس الطعام . . وإنما هى أسبابى أقمتها لمشيئتى إن شئت سقيتك وما ارتويت وأطعمتك وما شبعت .

وهذا هو التوحيد .

أول ما أنزل الله من علم على جميع الأنبياء .

فقال لمحمد عليه الصلاة والسلام .

« فاعْلَمْ أنَّه لا إلَهَ إلاَّ اللهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » . (محمد : ١٩)

وقالها لكل نبي ورسول من آدم إلى الخاتم .

وقال في حديثه القدسي :

« لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن عذابي » .

وجعل من هذه الوحدانية أساساً لكل شيء .

فبهذه الوحدانية تتوحد الشخصية الإنسانية ، وتتوحد الأمم وتتوحد الغاية وتتوحد القبلة ، وتتوحد الأهداف وتتوحد المسيرة .

وبهذه الوحدانية يزول الخوف فلا تعود النار ولا الحديد ولا سياط الجلادين ولا جبروت الحكام لها حقيقة بذواتها إنما الكل جنوده وأدوات مشيئته .

وهو يقول :

« فَلا تخافُوهُم وخافُونِ » .

(آل عمران : ١٧٥)

« فَلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْنِى » .

(البقرة : ١٥٠)

« لاَ إله إلاَّ أنَا » .

(طه : ١٤)

أنا الذى بيدى مقاليد كل شيء .. تخرج من عندى الأوامر والمراسيم .. وتتنزل الصواعق .. وأرسل الرياح وأسقط المطر .. وأسلط الجبارين بعضهم على بعض .. وأبعث أنبيائى هدى ورحمة .

وبهذا التوحيد يجتمع اهتمام الإنسان وتتوحد قبلته وتتوحد أشواقه

وتنتظم مشاعره وأفكاره كأنها الحبات سلكت خيطاً واحداً .

وهذا هو الأثر البنائى للتوحيد على الشخصية الإنسانية .

ولو عبد الإنسان أرباباً متعددين لتوزع اهتمامه فيما بينها وتشتت وانقسم على نفسه ولتعددت وجهاته وانفرطت مشاعره وتضادت وتناقضت ولم يجتمع على شيء ، وافتقد التركيز والراية الواحدة ولانقسمت بذلك الأمم واختلفت وتناحرت كل منها تدافع عن ربها لتستعبد به غيرها من الأمم .

فالوحدانية هى العمود الذى يحمل سقف الكون ويحمل سقف الشخصية الإنسانية .

ويكاد يكون القرآن نشيداً توحيدياً يذكرنا بالوحدانية فى كل صفحة :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

(سورة الإخلاص)

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْملائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قائماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(آل عمران : ١٨)

« ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ » .

(القصص : ٨٨)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ » .

(النحل : ٢٢)

« وقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلٰهيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ فَإِيَّاى فارْهبون »'.

(النحل : ٥١)

وناقش القرآن هذه الوحدانية وأقام عليها البرهان . فلو تعددت الآلهة التي تحكم السموات والأرض لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، ولتعددت الأوامر الإلهية وتناقضت ، ولنازع الآلهة الصغار الآلهة الكبار ولا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ولفسد كل شيء :

« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا » .

(الأنبياء : ٢٢)

« ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِنْ إلـه إِذاً لَذَهَبَ كلُّ إِلٰهٍ بما خَلَقَ ولَعلا بَعضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَ » .

(المؤمنون : ٩١)

« قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهةٌ كما يَقُولُونَ إِذًا لابْتغَوْا إِلىَ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً » .

(الإسراء : ٤٢)

« وجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جزْءاً إِنَّ الإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ » .

(الزخرف : ١٥)

بل هو واحد أحد صمد لا يتجزأ . . لا مثل له ولا ضد ولا ند ولا بعض ولا شريك ولا رسم ولا كيف ولا كم ولا أين . . لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم يفترق عنها فيقال هو عنها بائن .

وهو كما قال عن نفسه :

« إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ » .

(العنكبوت : ٦)

« إنْ تكفُروا أنْتُمْ ومَنْ في الأرْضِ جَمِيعاً فإنَ اللهَ لَغنِىٌ حَميدٌ » .

(إبراهيم : ٨)

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وهُوَ السَّميعُ البَصِيرُ » .

(الشورى : ١١)

ومن أسند القدرة والرحمة والنعمة والجنة لغير الله فقد حرم نفسه منها عدلا يوم القيامة ومكانه مع آلهة الوهم التى عبدها .

« إنه مَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجنَّةَ » .

(المائدة : ٧٢)

« ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضلَّ ضلالاً بَعِيداً » .

(النساء : ١١٦)

فالوحدانية صلب العقيدة وعمودها المتين وحبلها الوثيق ولا نجاة إلا باللجوء إلى ركنها وصخرتها . . فكل شىء هالك إلا وجهه .

وهو الحق وحده

المنفرد بالألوهية

المنفرد بجميع السلطات

المنفرد بالنفع والضر .

ويسوق القرآن آيات عديدة على هذا الانفراد بالنفع والضر .

« قلْ أتعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَمْلِكُ لَكُمْ ضراً ولا نفعاً » .

(المائدة : ٧٦)

ويلقن الله رسوله :

« قُلْ إنِّى لا أمْلِكُ لِنفْسِى ضراً ولا نفْعاً إلا ما شاءَ اللهُ » . (يونس : ٤٩)

« قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً » .

(الجن : ٢١

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضرّاً أو أرادَ بكم نَفْعاً »

(الفتح : ١١)

« ولا تَدْعُ مِنْ دُون اللهِ مالا يَنْفَعُكَ ولا يَضرّك فإنْ فَعَلْتَ فإنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالمين » . .

(يونس : ١٠٦)

« قُلْ أفاتَّخذْتُم مِنْ دُونِهِ أوْلياء لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِم نفْعاً ولاَ ضرّاً » .

(الرعد : ١٦)

« قُل ادْعُو الَّذين زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكونَ كَشْفَ الضّرِّ عَنْكُم ولا تَحْوِيلا » .

(الإسراء : ٥٦)

« وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلّا هُو » .

(يونس : ١٠٧)

« إن يردْن الرَّحْمٰن بِضرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شفاعتهم شَيئاً » . .

(يس : ٢٣)

ويقول عن الشيطان :

« ولَيْسَ بضارِّهِمْ شيئاً إلا بإذْنِ اللهِ » .

(المجادلة : ١٠)

ويقول عن السحر والسحرة :

« وما هُمْ بضارِّينَ بِهِ مِنْ أحدٍ إلاَّ بإذْن اللهِ » .

(البقرة : ١٠٢).

وإذا كان الله هو المنفرد بالضر والنفع فالسؤال الذى يتبادر إلى الذهن . . ما هو إذن دور الأسباب الظاهرة مثل الميكروبات والسموم والأمراض ؟ كيف نراها تضر ونرى العقاقير تنفع والطبيب يشفى ؟

والجواب أن الأسباب لله هو الذى يملكها وهو الذى يؤتيها وهو الذى يسوقها وهو الذى يسخرها . . وهو الذى أقام قانون السببية .

يقول الله عن ذى القرنين :

« وآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ سَبَباً . فأتْبَعَ سَبباً » .

(الكهف : ٨٤ ، ٨٥)

فالأسباب لا تضر بذاتها ولا تنفع بذاتها وإنما هى فى جميع الأحوال مظهر لمشيئته تضر بإذنه وتنفع بإذنه . . وهو إن شاء أوقع الضرر بها أو بدونها ، وإن شاء عطلها عن الفعل كما عطل النار عن إحراق إبراهيم عليه السلام .

ولذلك يقول إبراهيم :

« والَّذى هُو يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » .

(الشعراء : ٧٩ ، ٨٠)

يقول ذلك بالرغم من الأسباب الظاهرة للإطعام والسقاية والشفاء . ولكنه فهم الأمر على حقيقته أنه سبحانه بيده مقاليد كل شيء .

كما أن الله منفرد بالتصريف وبالعلم المحيط .

يقول الله لرسوله فى القرآن :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ».

(آل عمران : ١٢٨)

« للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وِمنْ بَعْدُ ».

(الروم : ٤)

« أَلا لَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِين ».

(الأعراف : ٥٤)

« قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ ».

(آل عمران : ١٥٤)

« بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ».

(الرعد : ٣١)

« وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إِلَّا فى كتابٍ مُبِينٍ ».

(الأنعام : ٥٩)

« قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إِلا اللهُ ».

(النمل : ٦٥)

وكل ما يصنع الإنسان ويخترع وينشئ يجب إسناد الصنع فيه إلى الله حتى ما يبنى بيديه من سفن ومراكب :

« ولَهُ الْجوارِ الْمُنْشَآت فِي البَحْرِ كالأَعْلامِ ».

(الرحمن : ٢٤)

« وآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ المَشْحُونِ . وخَلَقْنا لَهُم مِنْ مِثْلِهِ ما يركَبُون ».

(يس : ٤١ ، ٤٢)

« فَأَوحَيْنا إليهِ (إلى نوح) أن اصنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا ووحْيِنا » .
(المؤمنون : ٢٧)

« أفرأيتُمْ ما تَحْرُثُون . أأنتُم تزرعُونَه أمْ نحْنُ الزَّارِعُون » .
(الواقعة : ٦٣ ، ٦٤)

« أفرأيتُم ما تُمْنُون .أأنتُم تَخلقُونَهُ أمْ نحْنُ الخالِقُون » .
(الواقعة : ٥٨ ، ٥٩)

أفرأيتُمُ الماءَ الَّذِى تَشرَبُونَ.أأنتُم أنزلْتُموهُ مِنَ المزْنِ أمْ نَحْن المنْزِلون » .
(الواقعة : ٦٨ ، ٦٩)

« أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتى تُورُونَ.أأنتُم أنشأْتم شَجَرتَها أمْ نحْنُ المنشِئون » .
(الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

والله بذلك يفرد نفسه بإنشاء كل هذا حتى ما يتصور الإنسان أنه ينشئه بيديه مثل السفن والمخترعات ، فهى الأخرى كانت بوحى من الله . . هو الذى أمدنا بالعقل وبالفكرة وبالخامات ، ثم تابعنا بعنايته وتوجيهه ، ورافقنا خطوة بخطوة حتى الإنجاز النهائى .

وفى ذلك إفراد واضح لله بالصنع والفعل ، وإن كان الظاهر أن الإنسان يصنع ويفعل .

ثم إن الله منفرد بالفضل :

« وأن الفَضْل بيَد الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العظِيمِ » .
(الحديد : ٢٩)

وفى الحديث النبوى :

اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير (أى إن الذل

فى الطلب لن يجديكم إذا كان فى تقدير الله حرمانكم) .

ومن وصية الرسول عليه الصلاة والسلام لابن عباس : « يابنى إن الناس كلهم لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء ما ضروك إلا بشىء كتبه الله عليك وإن اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ».

وأجاب الرسول على من قال .

أستغيثك يا رسول الله .

بقوله : إنما يستغاث الله .

كما أن مقاليد الإيمان بيد الله وليست بيد الرسل ولا الكتب ولا بتأثير المعجزات :

« وأَقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِم لَئنْ جاءَتْهُم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُـل إنمَا الآياتُ عِنْدَ اللهِ وما يُشْعِرُكم أنها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُونَ . ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُم وأبْصارَهُمْ كَما لَمْ يؤْمِنُوا بِهِ أولَ مَرَّةٍ ونَذَرهُمْ فى طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ . ولو أننا نَزَّلْنا إلَيهِمُ الملائِكَةَ وكلَّمَهُمُ الموْتَى وحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلا ما كانوا لِيُؤْمِنُوا إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ ولكنَّ أكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

(الأنعام : ١٠٩ — ١١١)

ولا يستطيع رسول أن يهدى من لا يريد الله هدايته :

« إنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أحْبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدِى منْ يشاءُ » .

(القصص : ٥٦)

ولا يجدى كتاب حيث لا يريد الله أن يفتح على العقل بشىء .

« ولو نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِى قِرطاسٍ فَلَمسُوهُ بأيْدِيهِمْ لقالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هٰذا إلا سِحرٌ مُبِينٌ » . (الأنعام : ٧)

وإنما بالله وحده :

« وإذ أوْحَيْتُ إلَى الْحَوارِيِّينَ أنْ آمنُوا بِي وبرسُولِي قالوا آمنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُونَ » .

(المائدة : ١١١)

كما أن الصلاح والطاعة بيد الله .

« وأوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْل الخَيْراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكاةِ » .

(الأنبياء ٧٣)

وهو الذى يجعل الإمام إماماً :

« وجَعلْناهُمْ أئمَّةً يهْدُون بأمْرنا وأوْحَيْنا إليْهمْ فِعْل الْخيْراتِ وإقام الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكاةِ وكانُوا لنا عابِدِين » .

(الأنبياء : ٧٣)

ولكن مشيئة الله وهديه ليست أموراً عشوائية تعطى وتمنع فى تعسف وإلا انتفت مسئولية العباد تماماً . . والقرآن يوضح هذه المسألة فيقول إن هناك دائماً حكمة وراء المنع والعطاء والهداية والإضلال ، وإن مشيئة الله وهدايته دائماً تستند إلى لياقة واستعداد فى العبد . . وإن العبد يملك من المبادرات وخلوص النية والتوجه ما يرشحه للعطاء أو الحرمان . . فعطاء الله مشروط كما أن حرمانه مسبب وليس الأمر جبراً وإكراهاً وتعسفاً :

« وجَعَلْنا مِنْهُم أئمَّةً يَهْدُون بأمْرِنا لمَّا صَبَروا وكانُوا بآياتنا يُوقِنُون » .

(السجدة : ٢٤)

« كَذلِك يطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قلْبِ متكبِّرٍ جبَّار » . (غافر : ٣٥)

« فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فزادَهُمُ اللهُ مَرضاً » .

(البقرة : ١٠)

« فلمَّا زاغُوا أزاغَ اللهُ قُلوبَهُم » .

(الصف : ٥)

« اللهُ أعْلَمُ حيثُ يجْعلُ رِسالَتَهُ » .

(الأنعام : ١٢٤)

« ولوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خيراً لأسْمَعَهُم » .

(الأنفال : ٢٣)

فهناك دائماً أسباب . . والعبد يستطيع أن يخطو إلى ناحية النور فيتلقى النعمة أو يرجع إلى الظلمة فيصيبه الحرمان فالأمور تنبنى على توجهات قلبية والتوجهات القلبية حرة بيد أصحابها وملك لأصحابها .

والقضية لها ظاهر وباطن .

ولهذا يبدأ الصوفى أول ما يبدأ بتطهير باطنه (وهو ما يسمونه فى المصطلح الصوفى بإعداد المحل) ، وذلك بالعبادة والطاعة والخروج من كل خلق ذميم والتخلق بكل خلق كريم ، وبذلك يجعل نفسه أهلاً لتلقى النفحة .

وفى الحديث النبوى :

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها » .

والتعرض لا يؤتى ثمرته إلا إذا تمت المناسبة بين المحل وبين النفحة التى سوف تحل فيه .

وإذا جالست المجرم المحترف ساعات فكلمته عن الشرف والأمانة

ومكارم الأخلاق فلن يسمعك ، وإن بدا مصغياً ، وإذا سمعك فلن يفهمك ، وإذا فهمك فلن يتصرف على وفاق ما فهم . . لأن قلبه غير معد لاستقبال النصح .

ولا يمكن دعوة الملوك إلى مرحاض . . إنما لابد أن تفرش لهم الأرض وتصف طاقات الورد وتفتح صالات الاستقبال .

ولهذا ألقى الله برسالته إلى محمد عليه الصلاة والسلام ولم يلقها إليك ليس ظلماً ولا تحيزاً ، وإنما لأن القلب المحمدى هو المحل الكامل الذى أعده صاحبه وطهره وفرشه بالورود والرياحين ، فأصبح ملائماً لنزول ملك الملوك .

وفى الأمر أسرار .

والمسألة دقيقة وشريفة وتحتاج إلى مزيد نظر وتأمل .

الفصل الثاني

الوجود كله لله

التوحيد موضوع دقيق عميق لا يفهمه تمام الفهم إلا أهل البصائر.

وبين الواقع المشهود والأمر الإلهى يتوه العقل.

الله يقول . . (لا إله إلا أنا). أنا الذى أحيى وأميت وأضر وأنفع وأطعم وأسقى وأرزق وأمنع.

والواقع يرينا من حولنا عديداً من القوى الفاعلة لا قوة واحدة . . ويرينا كل قوة من هذه القوى قادرة وفاعلة فى مجالها . . فالرصاصة تقتل والسم يقتل والميكروب يقتل والسفاح يقتل . . كما نرى الملوك يحكمون ويرفعون ويخفضون ويعزون ويذلون ويرزقون ويمنعون.

والقرآن يقطع بإسناد الأفعال مطلقاً إلى الله وكأنما كل هؤلاء لا وجود لهم :

« له مَقاليدُ السَّمواتِ والأرْض يَبْسطُ الرِّزْق لمنْ يَشاءُ ويقْدر » .

(الشورى : ١٢)

« بيدِهِ ملكُوت كلّ شيءٍ وهو يُجِيرُ ولا يُجَار عليه » .

(المؤمنون : ٨٨)

« للهِ مُلْكُ السَّمٰوات والأرْض وما فِيهِنَّ وهو عَلَى كلِّ شيء قديرٌ »
(المائدة : ١٢٠)

« ولهُ ما سَكَنَ فى اللَّيْل والنهارِ » .

(الأنعام : ١٣)

« وإليْهِ يُرجَعُ الأمْرُ كلُّه ».

(هود : ١٢٣)

« قلْ للهِ الشَّفاعةُ جَميعاً ».

(الزمر : ٤٤)

« إنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً ».

(يونس : ٦٥)

« أنَّ القُوَّةَ للهِ جَميعاً ».

(البقرة : ١٦٥)

ويروى القرآن ما يحدث من ظواهر طبيعية فلا يقول . . نزل المطر أو هبت الريح . أو نبت الزرع أوحدثت كارثة . . بل يقول :

« أنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً » .

(لقمان : ١٠)

« فأنْبتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زوجٍ كريمٍ ».

(لقمان : ١٠)

« وأرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ » .

(الحجر : ٢٢)

« وأرْسلْنا السَّماءَ عليهِمْ مِدرارا » . (الأنعام : ٦)

« وأَمْطَرْنا عَلَيْهِم حِجارةً مِنْ سجِّيلٍ » .

(الحجر : ٧٤)

« وأَخَذْنا الَّذين ظَلَمُوا بِعذابٍ بئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسقونَ » .

(الأعراف : ١٦٥)

« فأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ والجَرادَ والقُملَ والضَّفادِع » .

(الأعراف : ١٣٣)

« فأرسَلْنا عَلَيْهم رِيحاً صَرْصراً ، فى أيامٍ نحساتٍ » .

(فصلت : ١٦)

« فأَخَذْناهُ وجُنودَهُ فَنبذْناهُم فِي اليَمِّ » .

(القصص : ٤٠)

« فَخَسفْنا بِهِ وبِدارِهِ الأَرْضَ » .

(القصص : ٨١)

« بَلْ مَتَّعنا هؤُلاء وآباءَهُم حتى طالَ عليهِمُ العُمُرُ » .

(الأنبياء : ٤٤)

« فآمَنُوا فمتَّعْناهُم إِلَى حينٍ » .

(الصافات : ١٤٨)

« وسخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يسبِّحْنَ والطَّير » . (الأنبياء : ٧٩)

فيسند كل شيء إلى الله . . وهذا هو التوحيد ، هو الفاعل لكل شيء . . يحيي ويميت ويشفى ويطعم ويسقى .

« نُسْقِيكُم مِمَّا فى بطُونه منْ بَيْن فَرْثٍ ودَمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشَّارِبين » .

(النحل : ٦٦)

كل شيء بفعله وأمره :

« وقِيلَ يأرْضُ ابلعِى ماءَكِ ويا سَماءُ أقْلِعِى » .

(هود : ٤٤)

فماذا حدث :

« غِيضَ الماءُ وقُضِىَ الأمْر » .

(هود : ٤٤)

وهذا هو الفرق بين السرد القرآنى وبين السرد الروائى للحوادث . . بين التوصيف الإسلامى والتوصيف العلمانى للأمور . . فالتوصيف العلمانى يقول نزلت الصاعقة على فلان ، والقرآن يقول أنزل الله الصاعقة على فلان .

ولهذا كان أمراً طبيعياً أن يطلب منا القرآن صرف العبادة لله وحده مادام هو الفاعل وحده لكل شيء .

« لا تَسْجُدوا للشَّمْس ولا للقَمر واسْجُدوا للهِ الَّذِى خلقَهُنَّ » .

(فصلت : ٣٧)

« أتَعْبُدُون ما تَنْحِتون . واللهُ خلَقكُم وما تَعْمَلُون » .

(الصافات : ٩٥ ، ٩٦)

« قُلِ اللهَ أعْبُد مخلصاً له دينى » . (الزمر : ١٤)

« قُلْ أغَيْرَ اللهِ أبْغِى رَبًّا وهُوَ ربّ كُلّ شَىء »

(الأنعام : ١٦٤)

« قالَ أغيْرَ اللهِ أبْغِيكُم إلَهاً » .

(الأعراف : ١٤٠)

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن بعد ذلك . . إذا كان الله هو الفاعل لكل شىء فماذا يبقى للعبد من فعل وعلام يحاسب وفيم يسأل . . ؟ ! ثم ما هذه الكثرة من القوى الفاعلة التى نراها حولنا تفعل وتؤثر وكأن كلا منها إله .

والموضوع يختلف بحسب نوع هذه الكثرة ، فكثرة الظواهر الطبيعية والقوى المادية يقول لنا القرآن إنها تعمل بالتسيير والتسخير والأمر الإلهى والكلمة الإلهية . . فكلها جنود مجندة من رياح وأعاصير وزلازل وبراكين وفيروسات وميكروبات .

ولكن الله يجعل لفعل هذه المؤثرات أسباباً وقوانين ليخفى مشيئته فيظهرها ، وكأنها تفعل من نفسها . . . والملائكة شأنها شأن هذه الجند تعمل بالأمر الإلهى :

« لا يَعصُونَ الله ما أمَرَهُم ويفعلُونَ ما يؤمَرونَ » .

(التحريم : ٦)

وتقول الملائكة للرسول اعتذاراً عن طول غيابها :

« وما نَتنزَّلُ إلَّا بأَمْرِ رَبِّك . ... وَمَا كَانَ ربُّك نَسيًّا » .

(مريم : ٦٤)

ولهذا تنضوى هذه الكثرة المتكثرة فى وحدة واحدة هى الأمر الإلهى . . الكل يطيعه ولا يتخلف . . فالكل مظهر لمشيئة الواحد

كثرة لا تتناهى عدداً قد طوتها وحدة الواحد طى
كل شىء فيه معنى كل شىء فتفطن واصرف الذهن إلى

ولهذا يقول القرآن عن الموت .

« قلْ يَتَوَفَّاكُم مَلكُ الموْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكمْ » .

(السجدة : ١١)

فيسند الموت إلى عزرائيل .

ثم فى موضع آخر يعود فيقول :

« تَوفّته رُسُلنا وهُم لا يفرِّطُون » .

(الأنعام : ٦١)

فيسند الموت مرة ثانية إلى جنود عزرائيل .

ثم فى موضع ثالث يعلن الحقيقة

« اللهُ يتوفَّى الأنفُس حينَ مَوتِها » .

(الزمر : ٤٢)

فالكل مظهر لمشيئة الواحد . . ولا اختلاف بين الآيات الثلاث فالكل طوع أمره وهذا هو الحال مع كثرة الظواهر الطبيعية ومع القوى المادية ومع الملائكة والملأ الأعلى . . أما مع الجن والإنس والشياطين فنحن مع نفوس مخيرة تطيع وتعصى عن اختيار ، وتخالف الأمر الإلهى إلى هوى نفوسها . . ولهذا جعلها الله محل مؤاخذة ومحاسبة وعقاب وثواب . .

ونرى القرآن يسند العمل إلى الشيطان فيقول موسى بعد أن قتل خصمه فى الشجار :

« قالَ هٰذا مِنْ عَمل الشَّيطان إنهُ عدوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ . قال ربِّ إنّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغْفِرْ لِى فغفر لَهُ » . (القصص : ١٥)

وفى هذا الغفران مصادقة من الله على دور الشيطان ومسئوليته فيما حدث .

أما الإنسان فهو ذروة اللغز وهو المدار الذى يدور حوله القرآن بحكم الخطاب .

والإنسان فى القرآن مأمور بالعمل ومكلف ومسئول ومراقب ومحاسب على أعماله :

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسُولُه والمُؤْمِنُونَ وسَتَرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكم بما كنتُمْ تعْمَلُونَ » .

(التوبة : ١٠٥)

والقرآن يسند الأعمال صراحة للعبد كما يسندها صراحة للرب فيقول المسلمون لأهل الكتاب :

« اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكُم » .

(الشورى : ١٥)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رهينَةٌ » .

(المدثر : ٣٨)

« كُلّ امْرِئ بِما كَسَب رَهِينٌ » . (الطور : ٢١)

« وكُلَّ إنْسان ألْزَمْناهُ طائِرَهُ فى عُنُقِه ونُخْرِجُ لهُ يَومَ القيامةِ كتاباً يلْقاهُ مَنْشوراً » .

(الإسراء : ١٣)

« فَمَنْ يَعْملْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيراً يرهُ . ومَنْ يَعْملْ مِثقالَ ذَرةٍ شراً يَرَهُ » .

(الزلزلة : ٧ ، ٨)

« ووجَدُوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظْلِمُ ربُّكَ أحداً » .

(الكهف : ٤٩)

« ولا تَعْمَلُون مِنْ عَمِلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكم شُهوداً إذ تُفِيضون فِيهِ » .

(يونس : ٦١)

« أنّى لا أُضيعُ عَمَلَ عاملٍ مِنكُم مِنْ ذَكرٍ أو أنثىَ » .

(آل عمران : ١٩٥)

« إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخ ما كُنْتم تعْمَلُون » .

(الجاثية : ٢٩)

فالعباد لهم أعمالهم وهى تدون صغيرها وكبيرها .

« وكُلّ صغيرٍ وكَبيرٍ مُسْتَطَر » . (القمر : ٥٣)

ولا يظلم الله أحداً مثقال ذرة من عمله .

ويشرح القرآن هذا الازدواج فى إسناد الأعمال للرب وللعباد وكيف أن عمل الرب لا ينفى عمل العبد ، ولا ينفى مسئوليته ، فيقول إن الله أقام الإنسان فى الأرض خليفة ونفخ فيه من روحه وسخر له الطبيعة وطوع له القوانين ومكنه من العمل :

« وإذ قال ربُّك للملائِكَة إنِّى جاعلٌ فى الأرْضِ خليفةً » .

(البقرة : ٣٠)

« وسَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّمٰوات وَمَا فِى الأرْضِ جَمِيعاً مِنْه » .

(الجاثية : ١٣)

« ولَقَدْ مكَّنّاكم فى الأرْضِ وجَعلْنا لَكُم فِيها مَعايِش » .

(الأعراف : ١٠)

فالأمر يجرى على وفاق سنن عليا قررها الله فى الأزل ، والإنسان يعمل بتفويض وتوكيل وله حرية الطاعة والمعصية ، وله أن يحسن أو يسىء التصرف فى هذا الاستخلاف ، وهو مسئول فى نطاق هذا التكليف .

« . . لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها » .

(البقرة : ٢٨٦) .

وهو بيان قاطع بأن الله أعطانا الاستطاعة وجعل فى وسعنا أن نعمل على وفاق الأمر الإلهى أو ضده .

اختيار الإنسان إذن حقيقة قرآنية . . وحرية ذلك الاختيار مقررة مكفولة .

والمشكلة تبقى . . كيف نوفق بين وجود إرادة للعبد وإرادة للرب . . وكيف نوفق بين هذا وبين تصورنا للتوحيد . . وكيف نفهم إسناد الفعل إلى العبد والرب معاً .

هل هناك إرادتان .

وهل هناك مشيئتان .

هناك سر .

ومفتاح هذا السر فى الآية ذات الدلالة العميقة التى يخاطب الله بها نبيه :

« وما رَمَيْت إذ رَمَيْت ولكنَّ الله رمَى » .

(الأنفال : ١٧)

فالله فى هذه الآية العجيبة يثبت الرمى للنبى عليه الصلاة والسلام

وفى ذات الوقت ينفى عنه الرمى . . يثبت له الفعل وينفى عنه الفعل فى عبارة واحدة (وما رميْت إذ رميْت) . . ثم فى النهاية يثبت الفعل لنفسه (ولكنّ الله رمَى) .

« فَلَمْ تَقْتُلُوهم ولكنّ اللهَ قَتَلهم » .

(الأنفال : ١٧) .

الواقع المشهود الظاهر يقول إنهم قتلوهم بأيديهم وسيوفهم . . هذه حقيقة يشهد بها الواقع — ولكن القرآن ينفيها .

« فلمْ تَقْتلوهم ولكنّ اللهَ قَتَلَهم » .

ويسند القتل بشكل خفى إلى الله .

وهذه إشارة إلى أن المسألة لها ظاهر وباطن ، وأن القضية لها أسرار .

فالظاهر أن أمامنا إرادتين ولكن الحقيقة أن الإرادتين تعملان فى تطابق خفى ، وكأنهما إرادة واحدة . . فالله لا يُكرِه العبد على مالا يريد بل يختار له من جنس قلبه ويريد له عين ما أراد لنفسه ويسهل له إنفاذ ما أضمر فى نيته . . من أراد الدنيا آتاه الدنيا ومن أراد حرث الآخرة زاد له فى حرث الآخرة من طلب الهدى هداه ومن أضمر فى قلبه المرض أمرضه من أعطى واتقى وصدق بالحسنى يسره لليسرى ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى يسره للعسرى . . والآيات على ذلك صريحة .

« مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه ومن كانَ يُرِيد حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها » .

(الشورى : ٢٠)

« والّذِينَ اهْتَدَوا زادَهُم هُدًى » .

(محمد : ١٧)

« إنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبكم خيراً يُؤْتِكم خيراً ممّا أُخِذَ مِنكُم » .

(الأنفال : ٧٠)

« في قُلُوبِهِم مَرضٌ فزادَهُم اللهُ مَرضاً » .

(البقرة : ١٠)

« فأمّا مَنْ أعطَى واتّقَى . وصَدّقَ بالحُسْنَى . فَسنُيَسِّره لليُسْرى . وأمّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى . وكَذّبَ بالحسنى . فَسنُيَسِّره للعُسْرى » .

(الليل : ٥ — ١٠)

ومعنى ذلك أن الله يقضى على العبد بما يطابق نيته . . وأن العبد ينوى والله ينفذ له ما نوى . . إذا أراد أن يضر قال له الله هاك يدى نفذ بها ما أضمرت من ضرر وعليك إثم نيتك وإن أراد أن ينفع ويفيد قال له الله هاك يدى نفذ بها ما أضمرت من نفع ولك ثواب نيتك فالله فى الحالين هو النافع الضار وهو الفاعل . . وإنما تبتلى السرائر (النيات) ويوم القيامة هو :

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ » .

(الطارق : ٩)

« إذا بُعْثِرَ ما فِي القُبُورِ . وحُصِّلَ ما فِي الصّدُورِ »

(العاديات : ٩ ، ١٠)

فبواطن القلوب والنيات هى عمدة الحكم .

ومن هنا تزول الثنائية ونعود إلى واحدية ، فالله يسيرك إلى عين اختيارك

فلا جبر ولا إكراه ولا وجود لإرادتين متنازعتين بل مشيئة واحدة ، فالله يشاء لك عين ما شئت لنفسك وينفذ لك ما أضمرت فى قلبك ليكشف لك ما كتمت ، ويعلن ما خبأت ويظهرك أمام نفسك على حقيقتك .

وبذلك يزول الخيط الدقيق الفاصل بين التسيير والتخيير ، فإذا بالتسيير هو عين التخيير والتخيير هو عين التسيير . . وإذا بالاثنين واحد فى ذلك اللغز الذى اسمه الإنسان .

ولكن الله كان يعلم سلفاً كل شيء بحكم علمه المحيط . . وعلم الله لا ينفى حرية العبد . . كما أن علمك بضعف ابنك فى لغة ثم تنبؤك برسوبه لا يعنى أنك أنت الذى أسقطته فى الامتحان . . إنما هو علم حصر وإحاطة لا علم إلزام وإكراه .

إذن لسنا عرائس فى مسرح عرائس تحركنا الخيوط راغمين فنتعانق ونتلاكم دون أن يكون لنا فى الأمر حيلة واختيار.

كما أننا لسنا ممثلين فى مسرح دراما نتلو أدواراً محفوظة وكل منا يمثل هاملت « وكأنه » هاملت ودون أن يكون أبداً هاملت .

بل نحن نمثل أنفسنا ونختار طباعنا ونباشر نياتنا . . فنحن حقائق ولسنا دمى .

وإذا كان لا بد من التشبيه بالمسرح . . فنحن نمثل على مسرح عجيب تختفى فيه كمبوشة الملقنين فلا تظهر لنا ولا لأحد . . ويباشر التلقين فى هذه الكمبوشة الخفية عدد من الملائكة والشياطين يلقنون الممثل نسخاً مختلفة من نفس الدور . . واحد يقول له اقتل . . والآخر يقول له . . لا تقتل . . حرام . . اصفح واغفر . . وثالث يقول .

بل تكسر له ساقه كما كسر لك ساقك . . ورابع يقول بل تكسر ساقه وتسرق حافظته . . وخامس وسادس وسابع وثامن . . وكل واحد يقترح عبارة وفعلا . . ويتلقى الممثل هذه الاقتراحات دون أن يرى مقترحيها فيخيل إليه أنها من نفسه . . وهو يتخير منها فيستجيب إلى ما يوافق نيته وطبعه . . وهو بهذا المعنى لا يمثل بل يعبر بصدق عن وجوده (كل اللغز أن الله عالم مسبقاً بجميع اختياراته ولكن هذا العلم الإلهى لا يتدخل فى تلك الاختيارات) ومن هنا كانت الرواية الإلهية محبوكة بينما الرواية الشكسبيرية ملفقة ومحفوظة من الممثلين مسبقاً والرواية الإلهية مبنية على خطة التوحيد الكامل بينما رواية شكسبير تتدخل فيها عدة أيد وعدة مشيئات . . كمشيئة المخرج أو المنتج أو الممثل أو صخب الجمهور ويمكن أن تنتهى إلى الفشل والإحباط .

سوف يقف واحد ويعترض قائلا :

صدقنا أن البطل فى هذه التراجيديا الإلهية المحكمة لا يمثل ولا تحركه الخيوط بالرغم عن إرادته بل هو يختار نيته وضميره وينفعل عن طبعه ونفسه وحقيقته . . ولكن ألا يحق لنا أن نسأل : ومن خلق له حقيقته ؟ !

وهو سؤال يحملنا إلى حلقة أخرى من حلقات العماء والخفاء والأسرار . . فنقول . . لا . . حقيقة أى إنسان غير مخلوقة وغير مجعولة . . ولو كانت حقيقتك مخلوقة مجعولة لما كانت حقيقة . . ولأصبحت تلفيقاً طارئا .

وسوف يعود السائل ويسأل مندهشاً .

وإذا كانت حقيقتى غير مجعولة . . فمن أين أتت ؟ ! فنقول :
حقيقتك أزلية قديمة وليست بجعل جاعل ... والله لا يقلب الحقائق ولا يغيرها . . وإنما يعطيها لبسة الوجود لتعبر عن نفسها وتكشف عن دخائلها . . .
وسوف يصرخ صاحبنا حائراً :
وأين كنت قبل إيجادى .
فنقول :
كنت حقيقة فى العدم تطلب من الله الوجود بلسان الحال فرحمك الله بإيجادك وألبسك لبسة الوجود وأعطاك الذراع والقدم واللسان لتضر وتنفع وتتحقق بمنزلتك ورتبتك بلا ظلم وبلا قهر وبلا تدخل من أحد . . يقول لك ربنا .
« وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبلُ وَلَمْ تكُ شَيْئاً » . (مريم : ٩)
ويقول :
« . . إنَّما قَوْلُنا لِشيْءٍ إذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لهُ كُن فَيكُون » .
(النحل : ٤٠)
فيوجه الخطاب (أن نقول له) لتلك الحقيقة فى العدم وكأنما لها كينونة من نوع ما . . وكأنما العدم غير معدوم .
وذاك سر آخر يعرفه أهل الأسرار .
فالعدم ليس معدوماً وإنما له كينونة من نوع ما ، والفرق بين كينونة الوجود وكينونة العدم كالفرق بين الموجب والسالب . . وكالفرق بين الفاعل والقابل . . وكالفرق بين النور والظلمة .

ولو كان العدم معدوماً لما كان له معنى فى الذهن

فالعدم كلية من الكليات .

وكل كلية تندرج تحتها حقائق .

وتلك الحقائق المندرجة فى العدم هى النفوس والأعيان الثابتة فى الأزل التى تتطلع إلى الله طالبة أن يرحمها بإيجادها .

أنا . . وأنت . . وكافة الخلائق . . حقائق لها قدم وثبوت وأحقية ن الأزل ولكنها حقائق سالبة غير قادرة على الوجود بذاتها وهى تظل عاطلة عن الفعل حتى يعطيها الله القدرة على الوجود والفعل .

وهذا كلام عجيب يفتح أمامنا مغاليق مثيرة ويضع أقدامنا على على حافة الخفاء المطلق .

وهو كلام يفتح الباب لألف سؤال وسؤال . .

وليس مطلوباً من مسلم أن يخطو إلى هذا المدى . .

ومن الممكن للمؤمن أن يعفى نفسه من كل هذا البحث ويكتفى بالتسليم والتصديق بنص القرآن وبأنه حر مخير مكلف مسئول وبأن الله عادل لا يظلم أحداً وأنه وحده الفاعل والضار النافع بالرغم من كثرة القوى التى تبدو فى الظاهر وكأنها تضر وتنفع . . يؤمن بذلك تسليماً وتصديقاً ويكفى نفسه شر الحيرة . . ويقول :

« حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل » .

« وقالوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانك رَبَّنا وإلَيْك المصير لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وسْعها لها ما كَسَبت وعليْها ما اكتسبت » .

(البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦)

وهذا هو توحيد أهل الإقرار ولهم عند الله ثواب عظيم .

ويقول الإنجيل :

« طوبى لمن آمن ولم ير » .

ويقول القرآن عن

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » .

(البقرة : ٣)

« أولئِكَ عَلَىَ هُدًى مِنْ رَبِّهِم وأولئك هُم المفْلِحُون » .

(البقرة : ٥)

ولكننا فى عصر عقل وعلم والإنسان يلقى الدمار حينما أراد بضغطه على زرار ويرسل القنابل الذرية فى صواريخ ويذرع الفضاء بالأقمار الصناعية وينزل الأمطار بالكيماويات ويتنبأ بحركات الشموس والنجوم القاصية لأصغر جزء من الثانية وكأنما أصبح إلهاً .

نحن فى عصر يتبجح فيه العقل بأنه كل شىء .

وسوف تجد من يعترض عليك طريقك ليسألك فى إصرار . . كيف يقدر الله لنا أقدارنا ثم يحاسبنا ؟

فإذا قلت له . . « سلِّم تسلم وآمن بلا جدل » انصرف عنك لا يلوى على شىء . . ولم يكتف باتهامك بالعجز بل جاوز الأمر إلى اتهام دينه بالعجز وقرآنه بالقصور .

ولهذا كان لا بد من قبول التحدى ، فنحن أبناء عصورنا ، وديننا دين عقل يأمر بالتفكير ولا يحظر أعمال العقل إلا فى منطقة واحدة هى

الذات الإلهية وكل ما عدا ذلك من الغيوب والأسرار أباحه الله لأهل العقول والبصائر كل على قدر استعداده .

ومن لطف الله بعباده أن أباح لهم بعض الخفايا لتجد بعض النفوس التواقة زاداً متجدداً يشفي فضولها وأشواقها ويجد كل عصر زاده وحاجته من العلوم والمعارف .

سيقول صاحبنا الذى لا يكف عن السؤال : وهل عندكم حقائق وراء ذلك فى خفايا أمر التوحيد .

سنقول نعم . . والسير إلى الله لا ينتهى . . فوراء توحيد أهل الإقرار . . هناك توحيد أهل الأسرار فالأولون وقفوا عند التصديق والتسليم . . والآخرون رابطوا وصابروا وصبروا وعبدوا واجتهدوا وتطلعوا إلى مزيد فوهبهم الله الشهود .

سيقول وما ذروة الشهود ؟

فنقول : إن تشهد عدمك وإن الوجود كله لله والفعل كله لله . وإن كانت النية لك والاختيار لك . . وأن تفهم سر الآية :

« وما رَمَيْتَ إذ رميتَ ولكنَّ اللهَ رمَى » .

(الأنفال : ١٧)

والآية :

« فلم تَقْتُلوهم ولكنَّ الله قَتَلهم » .

(الأنفال : ١٧)

وتفهم لماذا أثبت الله الفعل ونفاه فى نفس الوقت عن العبد .
وتشهد كيف كانت اليد يده سبحانه والرمية رميته وإن صدرت حقيقة الاختيار عنك . .

وذلك مشهد شريف دقيق لا مدخل فيه إلا للخاصة . . ولا فهم ولا ذوق إلا للخاصة الذين بلغوا مرتبة الإحسان فى العبادة فاستحقوا المزيد .

الفصل الثالث

توحيد أهل الأسرار

هل هناك ما سوى الله ؟؟!

على هذا السؤال الأزلى يجيبون .

نعم .. هناك العدم .. فما سوى الله عدم . والعدم عندنا غير معدوم .. فالعدم هو الوجه المقابل للوجود كالظلمة فى مواجهة النور والسالب فى مواجهة الموجب والقابل فى مواجهة الفاعل وكالمرآة فى مواجهة الشمس .

وفى العدم حقائق أزلية قديمة هى شئون الله ، ونحن كلنا كنا حقائق فى العدم أخرجها الله برحمته وأعطاها لبسة الوجود وجعلها محلا لتجليات أسمائه وصفاته .

« هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

(الأحزاب : ٤٣)

« وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » .

(مريم : ٩)

وهذا الخلق الدائم المتجدد وإخراج الحقائق من العدم إلى الوجود ومن الظلمة إلى النور هو شئون الله .

والله هو الوجود المطلق الذى يستحيل عليه العدم . . فلم يبق إلا أن يكون العدم هو « الغير » والسوى بالنسبة لله . . وأن تكون النظرة الثنائية نظرة لا معدى عنها لفهم الأمور .

ولكنها نظرة ثنائية لا تنفى وحدة الوجود . . فالوجود كله لله ولا « وجود » لغيره ولا فاعل غيره طالما أننا وصفنا الغير بأنه « عدم » وبأنه « قابل» وليس فاعلا .

« وَلِلهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وجْهُ الله »

(البقرة : ١١٥)

« لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وما فى الْأَرْضِ » .

(النساء : ١٧١)

« هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ » . (الحديد : ٣)

ووحدة الوجود بهذا المعنى وحدة وجود إسلامية لا وثنية فيها ولا أثر لانحرافات وحدة الوجود الهندية PANTHEISM فلا توحيد فيها بين العبد والرب ولا قول بأن الرب هو عين العبد . . ولا دعوى مشبوهة مثل دعوى « أنا الله » . . فقد قلنا من البداية إن العبد كان حقيقة أزلية فى العدم . . حقيقة سالبة « قابلة » لا فعل لها . . وإنها خرجت إلى الفعل والوجود والحياة بفضل الله ، وإن العبودية والافتقار والاحتياج خصائص ملازمة لها منذ الأزل . . ولا تصح لها دعوى ربوبية على الإطلاق إلا إذا أصابها الجنون أو الكفر أو الإلحاد .

وللصوفى العارف الأمير حسن بن مكزون السنجارى (عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى فى سنجار بالعراق وكان أميراً على إحدى قبائلها) نكتة لطيفة فى هذا الباب فهو ينصح بضرب الصوفى المجذوب الذى يقول: «أنا الله» وصكه بعنف فإذا احتج فقد تناقض مع دعواه (بأنه الله) وأثبت قوة فاعلة غير الله.. وفى ذلك يقول شعراً:

حاجج لمن قال «أنا أنت» بالسب وبالضرب وبالصك.

فإن أبا ذا منك فقل ملت عن توحيدك المحض إلى الشرك.

ويقول المكزون السنجارى فى شهادته التوحيدية:

أشهد ألا إله إلا الله الأحد لا من عدد الظاهر بذاته من غير جسد المتنزه عن الصاحبة والولد.

والذات الأحدية عنده لا تقبل التعدد لأنها كاملة وتعدد الكامل مستحيل فكل ما يكون فى نفسه تام لا يحتاج إلى آخر.. والكامل القادر الواحد يفى بجميع المراد فلماذا يتعدد.. وما الداعى إلى زيادة لا حاجة لها إلا أن تكون عبثاً وفضولا ولا عبث ولا فضول فى الكون..

تعالت ذات الله عن التعدد والكثرة وتعالت عن الحركة والسكون وعن الحلول والاتحاد وعن التغير والفساد وعن احتواء الجهات وعن الأسماء والصفات.. لا تحل فى كيان وإن ظهرت للعيان.

تعالت ذات مولاى عن الحيِّز والوصف
وعما حال فى الشكل وما يُلحظ بالطرف
تعالت ذات مولاى عن الإدراك بالعين
وعن دائرة الأين وإن شوهد فى الأين

ويقول « المكزون » إن كل ما نرى حولنا هي حضرة مجاز وتمثيل (أمثلة لقدرة الله وصفته ، أما الذات القادرة الواهبة فهي فى الغيب لا مثل لها) .

ليس لها بالحسن مثلٌ إنما تمثلت عند الظهـور بالمثل
موصوفة بين الورى وحسنها تحت النعوت والصفات مادخل

ويقول فى شعر رقيق مخاطباً الذات الإلهية :

إذا وصف العشاق معنى جمالكم
فتجريده من كل وصف له وصفى
وإن عبّروا باللطف عنه فإننى
أقول مفيد اللطف جل عن اللطف

والذات عنده متعالية على الأسماء والصفات ، فالأسماء والصفات مفادة منها ولكنها هى ذاتها فوق حدود التسمى وفوق حصر الصفات :

يفنى الكـلام ولا يحيط بوصفه
أيحيـط ما يفنى بمـا لا ينفد ؟

وتعدد الصفات لا ينفى وحدة الموصوف

عباراتنا شتى وحسـنك واحـد
وكل إلى الجمـال يشـير

ومن لطف الله أنه يتقرب إلينا ويتعرف علينا بأوصافنا نحن لا بأوصافه هو ، وذلك على سبيل الايناس المألوف بدلا من أن يواجهنا بذاته التى ليس كمثلها شىء فتهلكنا الرهبة ويسحقنا الجلال من ذلك الذى لا نعرف له شيئاً ولا نعرف له أولا من آخر .

فالرائى لا يرى من المنظر الإلهى إلا ما يشاكله هو من صورة الأسماء والصفات .

ممنوعة بالصفاء رؤيتها للعين إلا بوصف رائيها

يُطْمعه الاسم « الظاهر » بمعرفة الذات ويظن أنه قد وصل ثم يكتشف أنه ما زال بعيداً وما زال واقفاً عند نفسه هو :

بصفاها ممنوعة أن تراها عين راء إلا بوصف الرائى

ولعجــزى أن أراها بايا ها بدت بالصفات والأسماء

فعليها ما دل قلبي سواها وإليها لم تَدْعُنى بسوائى

والمعرفة عند ابن مكزون نوع من المغامرة المستمرة لا تنتهى إلا لتبدأ ، فهو يحاول أن يعرف الذات بواسطة الأسماء ثم يفاجأ بأنه إنما عرف الأسماء بواسطة الذات ، إذ هى التى وهبت الأسماء خصائصها وصفاتها المميزة واحتفظت بذاتها فى سر السر منزهة عن الوصف والكيف ، لا تحل فى كيان وإن ظهرت للعيان ، فالاسم والوصف كاشف وهو فى الوقت نفسه ساتر وحاجب :

كالشمس يجلوها على العين نورها

وهو لنـــا عن كنهـــا ســـاتر

فنور الشمس الشديد يحجب عن العين تفاصيلها وإن كان يجلوها متلألئة .

والصفات الإلهية عند ابن مكزون تقع على الاسم وليس الذات ومن هنا قول القرآن .

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى » . (الأعلى : ١)

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ » .

(الحاقة : ٥٢)

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلا » .

(المزمل : ٨)

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأَصِيلاً » .

(الإنسان : ٢٥)

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الجَلالِ والإكْرامِ » .

(الرحمن : ٧٨)

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَق » .

(العلق : ١)

« فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ » .

(الحج : ٣٦)

« ولِلّهِ الأَسْماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها » .

(الأعراف : ١٨٠)

وفى ذلك يقول عن الذات الإلهية :

وهى العليَّة عن وصفى وعن كلمى

فالله بإفادته القدرة للقادرين سمى قادراً ، وبإفادته الكرم للكرماء سمى كريماً ، وكذلك كل ما وُصف به إنما جرى عليه من قبيل أنه وهبة وإفادة لا من قبيل أن هذا الوصف أو ذاك كمال لذاته ، فصفات الله بهذا الاعتبار موهوبات من ذات الله ومفادة لأسمائه الحسنى ، أما ذاته فمنزهة عن الصور والأوصاف لأنها واحدة الحسن ، وإنما هو سبحانه

يتلطف بعباده فيظهر لهم بالصفات والأسماء ويدعوهم بالصور المشابهة لهم حتى يستأنسوا . . ولهذا قال الحديث . . « خلق آدم على صورة الرحمن » ، ولم يقل على صورة الله أو الذات ، فالله ظهر بالاسم الرحمن والرحمن خلق الإنسان على صورته لطفاً منه ليتم الائتناس وليمكن الحوار . . أما الذات فهى فى العلو والتجريد لا يحيط بها وصف ولا اسم .

وفى ذلك يقول ابن مكزون . . من عرف موقع الصفة بلغ قرار المعرفة . . أى من عرف وأدرك أن الصفة لا تقع على الذات الإلهية وإنما هى مستفادة منها ومفادة إلى الواحد أو الاسم أو الشىء أو النفس القابلة وواقعة عليها . . من عرف ذلك بلغ قرار المعرفة .

ولهذا يرد النبى عليه الصلاة والسلام كل شىء فى النهاية إلى الذات الإلهية فى حديثه :

« أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك » .

فهو فى البداية يستعيذ من أفعال وأسماء وصفات إلهية (أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك) ، ثم فى النهاية يسلم إلى الذات كل شىء (أعوذ بك منك) .

والذات سارية فى جميع الحضرات الوجودية فى العالم مثل سريان الواحد فى العدد ومثل سريان المداد فى الحروف ولا يوصل إلى الله إلا بنور الله .

ولا يعرف الله إلا بالله . . ويقول الشاعر فى ذلك :

وليس عليك غيرك من بدل

ومن العارفين من لا يصل إلى الله إلا استدلالا فيستدل بفعله على

صفته وبصفته على اسمه وباسمه على ذاته سبحانه وأولئك ينادون من مكان بعيد . . ومنهم من تحمله العناية إلى حريم الشهود فيشهد أنوار الحضرة . . وبين الرجلين بون شاسع .

والله هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

سبحانه لم يسبق له حال حالا فلم يكن أولا ثم أصبح آخرا أو كان باطناً ثم أصبح ظاهراً . . بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن فى ذات الآن دونما استحالة فى اجتماع الضدين ، لا يمنعه البطون من الظهور ولا يقطعه الظهور عن البطون .

وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس الإنسانية .

« وَفِى أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُونَ » .

(الذاريات : ٢١)

وفى الحديث الشريف . . « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

فالنفس لها ظاهر وباطن فى الوقت نفسه ، كما أن الله ظاهر وباطن .

وهى واحدة وهى كثرة من الصفات والأسماء .

والإنسان سميع بصير مريد متكلم عليم حكيم خالق مصور وهو حاكم لظروفه مهيمن على بيئته .

والإنسان ديمومة ممتدة فى الداخل وزمن موضوعى فى الخارج وهو بهذا المعنى نموذج مصغر ومثال من ربه . . وروح الإنسان وجسده مثال لذات الله والكون فلا انفصال بين روح الإنسان وجسده كما أنه لا اتصال بينهما ولا يمكن القول بحلول الروح فى الجسد ولا باتحادها به ، فلو كانت روح الإنسان متصلة بجسده لنقص منها جزء إذا بتر

من الجسم جزء ولاقتضى الأمر فى النوم ألا نرى ولا نبصر لتوقف آلات البصر بإغلاق العين .

كما أنها ليست منفصلة عن الجسد وإلا لما كان زيد أحق بها من عمرو . . كما أن الرؤيا الصادقة فى المنام هى دليل آخر على عالم لروح الغيبي المختلف عن عالم الجسد بحدوده وآلاته .

كذلك تبدو الأعضاء متحركة بذاتها (مثل النجوم التى تبدو متحركة بذاتها) مع أن الفعل كله للروح المحركة . . فالروح لها قيومية على الجسد كما أن لله قيومية على الكون .

وعلاقة الروح بالجسد لا هى حلول ولا اتحاد ولا هى اتصال ولا انفصال مثلما أن علاقة الله بمخلوقاته لا يجوز وصفها بالحلول ولا بالاتحاد ولا بالاتصال ولا بالانفصال .

والنفس تظهر فى أفعالها دون أن تحيط بها أفعالها .

والنفس لها ظاهر وباطن مثلما يوصف الله بأنه ظاهر وباطن .

والنفس لها وجود غيبي كما أن لها حضوراً مشهوداً .

والنفس سارية فى جميع الأفعال طول الوقت فى لطف وخفاء .

والنفس من هذه الوجوه أكثر الحقائق شبهاً بالسر الإلهى وفى ذلك تقول الآية القرآنية البليغة :

« سَنُرِيهِمْ آياتنا فِي الآفاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ »

(فصلت : ٥٣)

فالنفس آية كاشفة عن جلال الرب فى دقائق أوصافها وخصائصها .

وفكرة ابن مكرون عن الصفات الإلهية (أنها مفادة من الذات

للإنسان) تجعل الإنسان محل عناية وموهوب مجاناً برحمانية الصفات الحسنى ومواهب العالم الأسنى :

إلى الرحمن نسبة كل عبـــد
ظهـــور صفاته الحسنى عليـــه

والكل مدعو للتحلي بهذه الصفات بلا مقابل والشرب من حوضها النوراني الذى هو عين الحياة وإكسير الخلود .

« ومَن يُرِدْ فليأخذ ماء حياة مجاناً » .

(رؤيا يوحنا ٢٢ / ١٧)

والسر الإلهى سار فى الكون فى لطف وخفاء فيا يسمى بالنفس الرحمانى .

وسركم فى الكون ســـار وإنمـــا
على كل قلب ضل عن فهمه قفل

وفى ذلك يقول ابن مكزون السنجارى أبياتاً جميلة رقيقة :

وساحر زال عقلى بالسحر من مقلتيه
كلما وجهت وجهى عنـــه أراه إليه

ويقول فى مكان آخر :

أين أمضى هارباً من ذى الجـــلال
وابتغائى هـــرباً منه محـــال
وهـــو لى فـــوق وتحت وورا
وأمـــــام ويمين وشـــــمال

ويخاطب حبيبته ونفهم أنه يخاطب الذات الإلهية فكل جمال فى

حبيبته وكل حسن مفاد من الذات الإلهية .

ولولا ليل شَعْـرك ما ضللنـــا
ولولا صُبح ثَغـرك ما اهتدينـــا
وأثنينـــا على أوصـــاف سُعدى
ومعنى غـــير حُسنك ما عنينـــا

وذات الله غيب .

وجميع الأسماء والصفات الإلهية ما نعرف منها وما لا نعرف كلها مجملة كامنة فى تلك الذات كمون الشجرة فى النواة ، وتلك هى الحضرة الأحدية الغيبية (عالم الجبروت) وفى (عالم الملكوت) تظهر الحضرة الصفاتية الأسمائية تنزلا من عالم الغيب ، وفى (عالم الملك) تتنزل الأسماء الإلهية والصفات لتمد المخلوقات بالنفس الرحمانى وترعاها بالتربية والعناية وتلك حضرة الربوبية ، أو نزول الله إلى السماء الدنيا لاستعمال الحواس وتحريك الأعضاء فهو السامع والباصر والناطق على كل لسان وهو قيوم كل شىء وهو مخرج الزهور من أكمامها والأجنة من أرحامها .

وفى عظام الناس لى نشأة سـيارة مركزهـــا المخ

وكل هذه المستويات الوجودية هى ظهورات أو تجليات أو تنزلات الواحـــد .

والله بهذا المعنى ظاهر فى جميع المظاهر ولكنه منزه عنها جميعاً وهو غيرها وإن قامت به كما يقول الصوفية :

أراني فيك موجـــوداً . وعنى أنت منفـــرد

وأقرب تشبيه للأمر هو تجلى الوجه فى المرآة – فأنت ترى نفسك فى المرآة . . ومع ذلك فما يبدو فى المرآة هو أنت وأيضاً لست أنت . . وأنت موجود فى المرآة دون حلول ودون اتحاد ودون انتقال . . وإنما مجرد ظهور أو تجل .

ولسان حالك يقول وأنت تتأمل صورتك فى المرآة :

نظرى فى الزجاج أشهدنى نفسى
وغيرى على خلاف الحال
مثل ما فى المرآة أشهد مَنْ خلفى
أمامى وعن يمينى شمالى

وسوف تقول لنفسك فى المرآة :

أنـا لا أنـا هـو لا هـو

وسوف تقول للزجاج :

أرانى فيك موجوداً وعنى أنت منفرد

وبمثل هذا يتجلى الله فى المظاهر المختلفة دون أن يحل فيها أو يتحد بها أو ينتقل إليها ، فهو حيث كان ولا شىء معه ، وهو ما زال على ما عليه كان دائماً تتجلى كنوزه وأسراره فى عالم الممكنات ، كما تظهر صورتك متعددة فى مرايا متعددة فتبدو فى كل مرآة بزاوية خاصة ووجه مختلف :

وما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عددت المرايا تعددا

والحدود المشاهدة هى بسبب المرايا ونوعياتها كل منها يعكس جانباً ويجلو زاوية بعينها ولكن الأصل غير محدود .

ترى كل عـين منك طاقتهـا
وُسْعها فانتفى تحـديد معنـاك

كما أن تجليات الله بلا عـدد وبلا نهاية وبلا حصر والإحاطة بهذه التجليات محال .

« قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

(الكهف : ١٠٩)

والتوحيد عند أهل الأسرار مراتب ودرجات . أدناها التوحيد اللسانى بقول لا إله إلا الله ، ثم التوحيد البرهانى وذلك بالتفكر والتأمل والاقتناع ، ثم التوحيد حياة وعملا وسلوكاً وذلك بأن تكون حياة العارف مطابقة لأمر الله ومبذولة كلها لله وكأنما هو وإرادة ربه شىء واحد .

« قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ ومماتى لله رَبِّ العالمين . لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ » .

(الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣)

ومثل هذا العارف تتوحد أقواله بأفعاله وتتطابق نياته مع أعماله ويتماثل ظاهره مع باطنه فلا رياء ولا نفاق ولا كذب . . وإنما الكل منسجم فى وحدة هى ظل لناموس الله فى الأرض .

وذروة التوحيد هو التوحيد الشهودى وذلك بفناء العارف بين يدى ربه فلا يعود يرى لنفسه وجوداً ولا جسداً ولا كياناً ولا يشهد إلا نوراً

بى بوجه ، وبذلك تنتهى الثنائية ويعود العدم إلى العدم ويبقى الله لا إله إلا هو ولا وجود إلا له – واحد أحد صمد لا سواه . . وذلك هو معاينة التوحيد شهوداً . . ولا يكون إلا ببلوغ الحضرة وكشف الحجاب . وتلك هى مرتبة « قاب قوسين أو أدنى » التى بلغها الرسول عليه الصلاة والسلام فى معراجه .

وبعد تلك الجمعية العلوية مع الرب يَرُد الرب للنفس بقاءها وذلك هو البقاء بعد الفناء والعودة فى مقام العصمة والاستقامة .

ومثل هذا العبد الكامل بعد معراجه لا يعود يقطعه شىء عن ربه فهو مع الخلق لا تنقطع صلته بالحق ومع الحق لا تنقطع معاملاته للخلق . . فهو أبداً فى حالة حضور مع الله لا يغفل عنه لحظة ، فهو مع الناس بعقله ومع ربه بقلبه لا تقطعه الكثرة عن الواحد ولا يقطعه الواحد عن الكثرة ، فقد انتفى عنده التناقض بين الواحد والعدد فأصبح يرى كلا منهما فى الآخر .

كثـرة لا تتنـاهى عـدداً
قـد طوتهـا وحـدة الواحـد طى
كل شىء فيـه معنى كل شىء
فتفطن واصرف الـذهن إلى

وذلك هو توحيد الأنبياء .

الفصل الرابع

الوجـــود والعــدم

ما ثم إلا وجود وعدم . . ولكن العدم غير معدوم ، بل هو حضرة لها حقائقها كما أن الوجود (الله) حضرة لها حقائقها . . فالعدم حضرة سالبة بمثل ما أن الوجود حضرة موجبة . . والعدم حضرة « قابلة » بمثل ما أن الوجود حضرة « فاعلة » . . وهما أشبه بالظلمة والنور والمرآة والشمس التى تبدو فيها . . وهى تشبيهات قاصرة عاجزة ولكننا لا نجد غيرها .

وكل حقيقة فى العدم هى قابلية . . وهى عين ثابتة قديمة فى الأزل . . وهى ذات لها خصوص وصف هو الافتقار الكامل والاحتياج المطلق وعدم القدرة على شىء . . وهى حقيقة غير مجعولة (غير مخلوقة) فهى قديمة أزلية وتشخصها أزلى . . فكل ذات تحمل معها خصائصها ومكنونها منذ الأزل .

وتتفاوت الحقائق (الذوات) فى الجانب السلبى العدمى كما تتفاوت درجات البرودة سلباً تحت الصفر . . وهو مثال تقريبى لأشياء لا يمكن تقريبها ولا تمثيلها بعبارات وكلمات فنحن فى منطقة من الأسرار النهائية لا يجلوها اجتهاد فكر ولا يجيب عليها إلا كشف إلهى وعلم لدنى . .

ومن الحقائق فى العدم ما لا يطلب الظهور ولا الوجود وتلك الحقائق تبقى عدماً مطلقاً ولا يجعل الله لاسمه الظاهر سبيلا إليها .

ومن الحقائق فى العدم ما يتوق إلى الظهور والوجود وما يتطلع إلى الله حين يتجلى عليه طالباً أن يرحمه بإيجاده وتلك الحقائق أو الذوات يخرجها الله من العدم إلى الإمكان ويجعلها محلا لولاية أسمائه الحسنى وصفاته وتلك هى شئون الملك والملكوت . . وهذا هو عالمنا . . وهذه الذوات هى أنا وأنت ونحن.

وكل ذات منا تحمل حقيقتها معها وتحمل خصوص وصفها معها ولا يجعل الله لقدراته سبيلا إليها إلا من حيث إعطائها لبسة الوجود الخارجية وإعانتها على الفعل بحسب خصوص نياتها . .

ولا يقلب الله حقيقة أحد ولا يقهر أحداً على غير طبيعته (فالحقائق كما قلنا قديمة أزلية غير مجعولة) .

ولو قلنا إن الله يجعلنى قهراً كذا وكذاً ففى هذا الكلام نفى لذاتى ونفى لحقيقتى . . وقلب الحقائق مستحيل وإلا كانت الحقائق ظواهر لا حقائق وهذا نفى للحكمة التى أقامها الله ناموساً لكل شىء . .

ثم إن الجعل والقهر هو نفى للإمكان وقد أراد الله فى ناموسه أن يكون كل منا ذاتاً قابلة للاحتمالات من البداية . . وإمكانية منجة مفتوحة لجميع الاختيارات .

ولو كان « القابل » مجعولا لما كان قابلا ولضرب عليه التحديد من بدايته ولا نتقت المحاسبة والمساءلة . . كما أننا إذا نفينا « الذات » جعلنا من المساءلة عبثاً .

ونسائل من . . ؟

ونحاسب من . . ؟؟

والأمر مجعول ولا إمكان لوجه آخر ولا قابلية لاحتمالات ولا حقيقة للعبد ، وإنما الله هو الذى ينوى وهو الذى يضمر وهو الذى يفعل . .

إنما تصحيح الأمر أن ذات العبد حقيقة وأنها إمكان بحت قابل لجميع الاحتمالات . . وأن العبد ينوى ويضمر ويتوجه بالإرادة إلى حيثما تسول له نفسه ولكنه لا يستطيع أن يفعل فى عالم المادة والواقع إلا بمعونة الله وقيوميته سواء علم بذلك أم جهل . . والله بقيوميته وقدرته يخرج نية العبد وسريرته إلى عالم التحقيق ، فيعاونه على تحقيقها على حالها خيراً كانت أم شراً دونما تدخل إلا إذا أراد العبد تدخل الله وطلبه باللسان أو القلب أو الدعاء . . والله لا يغير من عبده إلا إذا طلب العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محباً وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدى الرب وخلع الاختيار وخلع الإرادة الصغرى تسليماً وإيماناً وتصديقاً وثقة بالإرادة الكبرى . . وهذا هو المشى إلى الله على الصراط والخروج من الهلاك إلى النجاة .

وحينما نقول إن هذه الذوات الممكنة كانت فى علم الله فيجب أن نفهم أن علم الله بهذه الذوات هو ما تعطيه هى أنفسها من معلومات وأن الله لا يتصرف فى القابل (الذات القابلة) إلا على ما هى عليه تلك الذات القابلة وإلا كان قالباً للحقائق وواضعاً للشىء فى غير موضعه وهو الظلم . . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً . . فهذه الذوات إذن معلومة بما هى عليه ومحكومة وحاكمة بحقائقها . . هكذا اقتضت

حكمة الله . . ولا يصح أن نُجوِّز على الله ما ينافى الحكمة . . فالله قضى فى أزله أن يَستعمل كلا على شاكلته وأن يوقف كلا عند استحقاقه فى سابقته وألا يقهر أحداً على غير طبعه .

« قُلْ كلٌّ يَعْملُ عَلى شاكِلَتِه » . (الإسراء : ٨٤)

فهو لم يجعل إبليس إبليساً ولكن كبرياء هذه النفس الملازم لها منذ الأزل هو الذى رشحها لهذا المنصب الإبليسى .

وهكذا يقيم الله كل نفس فى مكانها بحسب خصوص وصفها القديم الأزلى .

وهذا مقتضى الحكمة الإلهية . . لا جبر من رب على عبد ولا جبر من عبد على رب .

ولكن المواقف تتغير إذا ألقى العبد باختياره طوعاً وأسلم نفسه إلى ربه وطلب بلسانه وقلبه وجوارحه أن يزكيه ربه ويطهره ويغيره .

يقول الله لعبده :

(ألق الاختيار ألق المساءلة البتة) .

[المواقف والمخاطبات — النفرى]

فهنا أعلى مستوى توحيد بين العبد وربه على مستوى الذات حباً واختياراً وتسليماً . . فقد أعطى العبد لربه أثمن ما يملك « حقيقته » وتلك ذروة المعرفة التى يكافئها الله بأعلى تكريم فيقول الله عن هؤلاء العباد . . هؤلاء هم أهلى وخاصتى وخلانى .

وهؤلاء العبـاد تسقط عنهم المساءلة لأنهم أسقطوا عن أنفسهم الاختيار والتدبير وارتضوا اختيار الله لهم بتمام التوكل .

والكون بهذا المعنى مجموعة من القوابل السالبة والذوات الثابتة فى العدم إخرجها الله إلى الوجود وألبسها حللا من أسمائه وصفاته . . وهى رؤية تصدق عليها الشطحة التى قالها ابن عربى . بأن هذا العالم غيب لم يظهر قط ، والحق تعالى هو الظاهر ما غاب قط والناس فى هذه المسألة على عكس الصواب فيقولون العالم ظاهر والله غيب فهم بهذا الاعتبار كلهم عبيد « السوى » والغير .

هذا هو خلاصة ما قاله العارفون فى مسألة العدم ، أما الوجود (الله) فقد سبق أن قلنا إنه حضرة أحدية ذاتية فى غيب الغيب . . وجميع الأسماء الإلهية والصفات الإلهية مما نعلم ومما لا نعلم مجملة كامنة فى هذه الذات الغيبية كمون الشجرة فى النواة . . (وذلك الوجود الغيبى الأعلى هو عالم الجبروت) .

ثم إن لهذه الذات تنزلا أو تجلياً فتظهر بأسمائها وصفاتها فى (عالم الملكوت) فى حضرة أسمائية صفاتية تمد الممكنات بحلية الوجود ثم ترعاها بالتربية والعناية وتلك هى حضرة الربوبية فى (عالم الملك) الذى نعيشه نحن وسائر المخلوقات التى تحيا بفضل الله ومدده .

وبالرغم من هذه الكثرة من الأسماء الإلهية والكثرة من التجليات والتنزلات والظهورات والحضرات يجب ألا ننسى لحظة أن الظاهر فيها كلها واحد والمسمى واحد والسارى فى جميعها واحد وتلك هى أحدية الجمع (وهو الشعور دائماً بأنك مجموع على الله الأحد برغم الكثرة الظاهرة وأن هذه الأحدية سارية فيك) ويقتضى الفهم الصحيح للألوهية ألا نقف عند هذه الأحدية حتى لا يأخذ الواحد منا طائف

الجنون والذهول فيقول فى لحظة (أنا الله) وإنما يجب أن نضم إلى هذا الشعور بالجمع شعوراً آخر مبايناً « بالفرق » فيشعر الواحد منا على الدوام بأنه حقيقة مفارقة فى العدم وأنه قائم متحرك ناطق موجود بفضل الله لا بقدرة من ذاته . . وفى رؤية هذين الضدين رؤية واحدة (الجمع والفرق) الفهم الصحيح للألوهية . . فالعارف يُشَبِّهُ ويُنَزِّه فى ذات الوقت .

« لَيْسَ كمثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ » .

(الشورى : ١١)

تنزيه وتشبيه معاً فهو ليس كمثله شيء وهو سميع بصير فى ذات الوقت .

« وهُوَ مَعَكم أيْنَما كُنْتم » . (الحديد : ٤)

آية صريحة دالة على « الجمع » .

« عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ الكَبِيرُ المتَعال » .

(الرعد : ٩)

آية أخرى صريحة دالة على « الفرق » وعلى عزة الله ورفعته وعلوه على كل مخلوقاته .

وهذه الرؤية الدقيقة الشريفة « أحدية الجمع والفرق » هى ذروة ما يبلغه العارفون فى أمر التوحيد . . فهم يرون الوحدة فى الكثرة كما يرون الكثرة فى الوحدة فى ذات الوقت . . فالله حاضر فى جميع الموجودات . كما أن جميع الموجودات كائنة فى علمه . . ولكنه غيرها جميعاً ومتعال عليها جميعاً .

ويروى العارف الموحد ما حدث فى أمر الخلق بتلك اللغة الرمزية الإشارية العالية فيقول :

هو الله الذى لا إله إلا هو الوجود الغيب ونحن العدم الغيب فظهر سلطان التجلى من الوجود الغيب على العدم الغيب فظهر شهود الحق الغيب (وهى المخلوقات كافة) توحده بلا جحود ولا ريب .. ظهور دلالة وتعريف لا حلول وتكييف .

والوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرآة .. الحقيقة فاعلة والمرآة قابلة ناقلة ولكنها سالبة لا تضيف من عندها شيئاً ولا تقدر بذاتها على شيء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه

ولكن الأمر فى حقيقته كنز من الغنى اللانهائى ومن هنا جاء التعدد بسبب اختلاف القابليات فى الذوات الثابتة فى العدم كل منها يأخذ من ثراء الحق تعالى على قدر استعداده (كما تخرج ألوان سبعة من النور الأبيض بسبب اختلاف زوايا الانكسار فى منشور زجاجى وكلها كانت ثروة من الأمواج الطيفية كامنة فى اللون الأبيض) .

وما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عددت المرايا تعددا

فجميع الحضرات الأسمائية والحضرات الصفاتية هى حضرات مفادة من الذات إلى القوابل المتعددة فى العدم كل يقبل منها بحسب استعداده .. ولكن الذات متعالية على الصفات متعالية على الأسماء لا تحيط بها صفة ولا يحيط بها اسم .

ويأتى المدد من هذه الحضرات إلى أعيان الممكنات .. فيمدها

الحق تعالى من «النفس الرحمانى» بالوجود حتى يرجع وجودها على عدمها (وعدمها هو مقتضى ذاتها الأصلية بدون موجدها).

وأما الخلق الجديد فيكون بإيصال مدد الجود من نفس الرحمن إلى كل ذات ممكنة فى العدم وإفاضة هذا الجود عليها على التوالى ليكون لها فى كل آن تخلق جديد لاختلاف نسب الوجود عليها مع الآنات مع استمرار عدمها فى ذاتها.. وهى مسألة يتعذر فهمها إلا تذوقاً.

فحقائق المخلوقات وذواتها الأصلية باقية على عدمها الأصلى برغم توالى صور الوجود عليها وتعينها آناً بعد آن ودخولها فى شأن بعد شأن وحال بعد حال.. وهذا أمر يدركه العارف ذوقاً (إنه ميت حى فى نفس الوقت).

يقول الله لرسوله:

«إِنَّكَ مَيتٌ وإِنَّهُم مَيِّتُون».

(الزمر: ٣٠)

يقول له ذلك وهو فى ذروة الحياة والفعل تذكيراً له بتلك العين العدمية التى جاء منها هو وكل المخلوقات.

ومن جملة كمالات الله أنه يحيى ويميت وأن له القدرة على إمداد كل نفس قابلة على قدر قبولها واستعدادها من مدد الوجود والحياة.

«وآتاكُمْ مِنْ كلٍّ ما سألْتُمُوه».

(إبراهيم: ٣٤)

وكل ذات ممكنة فى العدم تسأله بلسان الحال أن يرحمها بإيجادها فيوجدها ويهديها إلى معرفته.

« رَبُّنا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خلقَه ثُمَّ هَدَى » .

(طه : ٥٠)

« إنَّ علينَا لَلْهُدى.وإن لنا للآخِرَة والأُولَى » .

(الليل : ١٢ ، ١٣)

وهو يعطى كل نفس خلقها وقالبها الذى تستحقه ثم يهديها ويواصل إمدادها ويجدد خلقها آنا بعد آن .

« ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُو آخذٌ بِناصِيتِها » .

(هود : ٥٦)

هكذا تستمر علاقة ربنا بمخلوقاته وتستمر عنايته بها فيمدها جميعاً بأنفاسه الرحمانية . . ولو تخلى عنها لعادت عدماً كما كانت وما زالت . . فكل منا لا يملك من نفسه إلا العدم . . إنما نتحرك ونسمع ونبصر ونعقل بنور الله ومدده .

وكل ما سوى الله قائم بالله . . فكل العباد والخلق وكل ما هو حادث هو عدم منفى على التحقيق ولكنه ثابت وقائم بالله وبتجلى الحق تعالى مع الآنات بوجهه فى الصور فيكون « الحدوث » عند الموحد العارف هو ظهوره تعالى فى الصور المختلفة بالتجليات المتعاقبة غير المتكررة .

توحيد من ينطق عن نعته   عارية أبطلهـــا الواحـــد

فلا نطق ولا رسم ولا فعل إلا بالاستعارة والقرض من الله ولكن الناطق فى ذاته باطل وعدم فى الحضرة الأحدية .

توحيـــده إيـــاه توحيده   ونعت من ينعته لاحـــد

أى أن التوحيد الحق هو توحيد الله ذاته بذاته .

* * *

كيف كان الخلق على الترتيب ؟

ومن هو أول مخلوق خلقه الله . . ؟

يقول العارفون إن أول ما خلق الأحد خلق الواحد فضرب مثالاً للأحدية بالواحدية (وكل ما خلق الله مجاز وتمثيل إذ لا حق غيره هو) .

ويعبرون بلغتهم الإشارية الرمزية عن هذا الخلق الأول قائلين :

لما شاء الحق تعالى من حيث أسمائه الحسنى أن يرى أعيانها فى كون جامع يحصر الأمر كله ويظهر به سره خلق الواحد . .

فالواحد إذن هو الذى ستتجلى فيه جمعية الأسماء والصفات . . وقد اختلفت تسمية هذا الواحد بين الصوفية والفلاسفة . . فقال الصوفية هو النور المحمدى وقالوا هو الحقيقة المحمدية وقالوا هو الخليفة وقالوا هو ظل الله وقالوا رمزاً هو القلم (الذى سيسطر كل شىء وتسيل منه كل الكلمات) وأشاروا له بأوصاف . . مثل . . جوهرة الكنز اليتيمة . . وشمس التجليات . . وفرد الذات . . والبرزخ الجامع . .

وأشاروا إليه بالحروف فقالوا هو (س) السر الصادر عن (م) الأمر .

وقالوا هو الإنسان الكامل .

وقال الفلاسفة هو العقل الكلى .

وقالوا هو التعين الأول .

وحجة الصوفيين الذين قالوا إن أول ما خلق الله النور المحمدى

أو الحقيقة المحمدية . . هى الكشف والعلم اللدنى والحديث الشريف ، والقرآن .

وفى الحديث الشريف للصحابى جابر .

« أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » .

وفى رواية أخرى .

« أول ما خلق الله نورى » .

وفى حديث آخر صحيح .

« كنت نبياً وآدم يجدل فى طينته » .

وفى القرآن يقول الحق تعالى لرسوله :

« وما أرسلناكَ إلَّا رحمةً للعالَمين » .

(الأنبياء : ١٠٧)

وفى كلمة العالمين إطلاق فى الزمان والمكان .

كما يقول له أيضاً :

« فكيفَ إذا جئنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجئنا بِك عَلَىَ هؤلاء شَهِيداً » .

(النساء : ٤١)

فجعله شاهداً على جميع الأمم من بعده ومن قبله وهذا لا يكون إلا بوجود له سابق ممتد وحضرة سابقة لها مشهد دائم .

وهو أمر لا غرابة فيه . . فقد أمهل الله إبليس وهو رسول الشر حينما طلب إبليس منه الإمهال قائلا :

« ربِّ فأَنْظِرْنى إلىَ يَوْم يُبْعَثُون » .

(الحجر : ٣٦)

فأجابه إلى طلبه وقال له :

« فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين . إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُوم » .

(الحجر : ٣٧ ، ٣٨)

وبذلك جعل له وهو رسول الشر حضرة دائمة إلى يوم القيامة ، فلا غرابة أن يجعل لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو رسول الرحمة حضرة دائمة .

بل هو الأمر الطبيعى الذى لا يرفضه العقل ولا تأباه الشريعة على اعتبار أن الحضرة السابقة للنبى عليه الصلاة والسلام كانت حضرة نورانية روحية بمثل ما كانت حضرة إبليس حضرة ظلمانية ، وباعتبار أن كليهما عبد الله لا تخرجه عن عبوديته هذه الديمومة .

والشهداء لا يموتون ولا يصح أن نقول إنهم قتلوا فهم أحياء عند ربهم يرزقون . والصديقون والأنبياء أعلى من الشهداء رتبة . . وخاتم الأنبياء هو أعلى الكل وسيد الخلق فحياته الدائمة وحضرته الروحية بين يدى ربه أولى .

وهذا التعظيم للرسول عليه الصلاة والسلام لا تحظره شريعة طالما أنه لا يدعى له ربوبية ولا يخرجه عن عبوديته وعن كونه مخلوقاً لله . . وهو ما اتفق عليه الكل فهو العبد الكامل والمخلوق الأول الذى لا يتجاوز حـــدود عبوديته وافتقاره قيد شعرة ثم حجة الحجج وبرهان البراهين عندهم فى النهاية هو الكشف وشهود الأمر على ما هو عليه ورؤية هذه الحضرة المحمدية وتناول الفتح منها (باعتبارها الباب إلى رضى الله ونوره) .

« قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّون اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكم .
(آل عمران : ٣١)

« مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاع الله » .
(النساء : ٨٠)

ويذكر القرآن الخمسة الصفوة من أولى العزم من الرسل فيجعل محمداً عليه الصلاة والسلام أولهم فيقول له :

« وإذْ أخَذْنا مِنَ النَّبيين ميثاقهُمْ ومِنْكَ ومن نوحٍ وإبْراهيمَ ومُوسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيم وأخذنا مِنهُم مِيثاقاً غَلِيظاً » .
(الأحزاب : ٧)

إنَّا أوْحَيْنا إليْكَ كَما أوْحَيْنا إلىَ نُوحٍ والنبيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .
(النساء : ١٦٣)

ويقول القرآن آمراً الناس بالعمل :

« وقلِ اعْمَلُوا فَسَيرى اللهُ عَمَلَكم ورَسُولُه والمؤْمنونَ وستُرَدُّونَ إلىَ عالمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَينَبِّئكم بمَا كُنْتُم تَعْمَلونَ » .
(التوبة : ١٠٥)

ومعنى ذلك أن رؤية الرسول والمؤمنين للأعمال وشهود الرسول لما سوف يجرى فى أمته هو أمر حادث وقائم فى الدنيا لأن الآية تتكلم بعد ذلك عن البعث فتستطرد مردفة :

« وستُرَدُّون إلىَ عالمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئكم بمَا كُنُتم تَعمَلُون » .
(التوبة : ١٠٥)

فالرؤية الأولى غير تلك الرؤية . .

وهى إشارة إلى رؤية حاضرة وشهادة حاضرة للرسول عليه الصلاة والسلام . . من قبل البعث ومن قبل أن يقوم الأشهاد .

والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر فى الرؤيتين . . وشاهد فى الرؤيتين .

وهذا يدل على مقامه العظيم فى الدنيا والآخرة وقد جاء فى صريح القرآن .

« إنَّ اللهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّون على النَّبيِّ يَـأيُّها الَّذِين آمنُوا صَلُّوا عليهِ وسَلِّموا تَسْلِيماً » . (الأحزاب : ٥٦)

ونعود إلى ترتيب الخلق فنقول إن أول ما خلق الله هو النور المحمدى عند الصوفية وعند الفلاسفة العقل الكلى ثم يلى ذلك خلق النفس الكلية (ويشار إلى العقل الكلى والنفس الكلية بالقلم واللوح) ومن العقل الكلى والنفس الكلية تأتى الطبيعة السارية فى الوجود (الهيولا عند أرسطو والنفس الرحمانى عند الصوفية) ثم من ذلك النفس الرحمانى السارى تتولد الكلمات الإلهية فتتجسم الأشياء فوراً وفق الكلمات على مثال كن فيكون ، فيظهر الجسم الكلى للكون فى البداية وهو الهباء أو الدخان ثم يظهر العرش ثم الكرسى ثم تنفصل الأفلاك ثم العناصر ثم المولدات من نبات وحيوان ثم الإنسان وهو آخر ما يظهر فى سلسلة المخلوقات بالكلمة والجسد . وهو برغم ذلك أول ما خلق فيها بالروح وهو ما أسميناه فى البداية بالواحد أو الإنسان الكامل .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ فى أحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أسْفَل سافِلِين » . (التين : ٤ ، ٥)

والإنسان عند العارفين هو جمعية ملخصة للوجود كله فهو مثل الكتاب الجامع والكون أشبه بصفحات ذلك الكتاب .مفرقة فنحن نجد فى الإنسان عقلاً جزئياً فى مقابل العقل الكلى الكونى كما نجد نفساًجزئية تقابل النفس الكلية الكونية . . ثم دماغه يقابل العرش وصدره يقابل الكرسى وأعضاؤه والحواس التى تدبرها تقابل الأفلاك والأبراج والملائكة التى تدبرها .

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

ويقول الشاعر الصوفى :

كل الجمال غدا بوجهك مجملا

لكنه فى العالمين مفصل

وللصوفيين فى ذلك شطحة . . فهم يقولون :

بمثل ما تكون تعلقاتك فى الدنيا تكون تعلقاتك فى الآخرة فإذا عشت عبداً لأعضائك وحواسك وشهواتك ولم تستطع الخلاص من أسرها فمصيرك فى الآخرة أن تقع فى أسر الأبراج النجمية والملائكة المدبرة لها (وهى الزبانية التسعة عشر التى ذكرها القرآن) حيث تخلد أسيراً لنيرانها أبداً . . لأن إزالة التعلقات بعد ضياع الآلات (بعد الموت) من المحالات .

والأبراج وملائكتها المدبرة هى التى تقع فى مقابل الأعضاء وحواسها المدبرة فى الكتاب الجامع الملخص الذى اسمه الإنسان .

وكل حقيقة فى الدنيا تقابلها حقيقة فى الآخرة . . هنا أنهار وهناك أنهار ، هنا فواكه وهناك فواكه . . هنا مآكل ومشارب وهناك مآكل

ومشارب . . هنا نار وهناك نار . . مع فارق شاسع وأى فارق .

« ومَنْ كان فى هٰذِهِ أعْمَى فَهُوَ فى الآخِرةِ أعْمَى وأضلُّ سَبيلاً » .

(الإسراء : ٧٢)

والتفاوت فى المراتب هنا يقابله تفاوت أكبر هناك .

« وللآخرةُ أكبَرُ دَرَجاتٍ وأكْبَر تَفْضِيلا » .

(الإسراء : ٢١)

ثم التناظر بين الإنسان والكون والتقارن بين الدنيا والآخرة وتقابل الحقائق بين الذرة والمجرة وتشابه المناظر بين الخلية فى ورقة نبات والخلية فى قلب سبع . . وسبب هذا التشاكل العجيب أنها جميعاً تجليات ذات إلهية واحدة وصناعة قدرة إلهية واحدة .

وكل هذه المراتب الوجودية هى فى المصطلح الصوفى والقرآنى ظهورات أو تجليات أو تنزلات أو خلق أو إبداع من المبدع صاحب الكنوز التى لا تنفد . . الذات الإلهية الملفعة بغيب الغيب .

وظهور الله عند الصوفية هو عين اختفائه لأنه جعل من هذه المظاهر المتعددة حجاباً على وحدته كما جعل من الأسباب والقوانين حجاباً على مشيئته . . كما جعل من ملوك الأرض الصوريين حجاباً على حاكميته الحقيقية .

يقول المكزون السنجارى عن هذه الذات المبدعة الملغزة .

هى التى باختفائها ظهرت وكان عنـــا السفور يخفيها

وحجب الكثرة تحجب عين الغافل ولكنها تشف وتشف عن الأحدية الباطنة فيها أمام عين العارف الذاكر .

وعدم البعث واستمرار الموت عند المكزون أمر محال على الله بحكم كرمه وجوده ، فالكريم لا يسلب هبته ولا يسترد عطيته أبداً . . وإذا استردها فليعطى أعظم منها . . فما أخرجه الله من العدم بجوده وكرمه يستحيل أن يرجعه عدماً .

فناؤنا مع بقاء واهبنـــا يقضى بنكث الكريم فى حبه
وذاك بخل وجــل خالقنا عن أن يكون التقتير فى صفته
وهو محال على الإله الذى كل لبيب زكا بمعرفتـــه

وهذا هو حسن الظن بالله الجدير بالمؤمن حقاً .

ولأن الفاعل المطلق (الله) لا بد له من قابل مطلق (الكون والمخلوقات) . . والوجود لا بد له من مجال عدمى يعمل فيه . . يقول ابن عربى فى غرور ودلال عجيب متحدثاً عن ربه .

فأعطينـــاه ما يبـــدو به فينـــا وأعطانا
فصار الأمر مقسوماً بإيـــاه وإيانـــــا

فيجعل نفسه مقاسماً لربه فى عملية الخلق وهى شطحة فيها دلال ولا شك أن هناك تعدداً ملحوظاً للخالقين . . فالموسيقار يخلق والنحات يخلق والمهندس يخترع والمسيح يصور من الطين كهيئة الطير وينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، والملائكة تبدع والأسماء الإلهية تصور ، فهناك تعدد للخالقين ولكن الكل يخلق بقدرة الله وإذنه وإلهامه . . والله فوقها جميعاً وأحسنها جميعاً وهو بذاته القوة المبدعة فيها .

« فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(المؤمنون : ١٤)

فاعترف القرآن بتعدد الخالقين ولكنه قال إن الله أحسنها .. لأنه يخلق بذاته دون حاجة إلى إلهام من أحد أو إذن من أحد ولأنه يخلق على غير مثال سبق . . بينما الكل يخلق من نموذج أو تعليم أو فكرة مستوحاة ويخلق من مادة مخلوقة سلفاً . . ثم إن الكل مستمد منه لا يخلق إلا به . أما هو فهو الوحيد الخالق بذاته المستغنى بذاته فلا تجوز هذه الشطحة من ابن عربى بأن الله (الوجود) محتاج إلى العدم أو أنه مقاسم للعدم فى عملية التكوين فتلك شطحة خرجت من ابن عربى الشاعر وليس من العارف .

الفصل الخامس

السير إلى الله

كل شيء فى الكون فى حالة حركة وسير . . من الذرة إلى المجرة . . ومن البعوضة إلى الإنسان .

« كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى » .

(الرعد : ٢)

« وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

(يس : ٤٠)

ذلك السبح الدائم المستمر هو سمة الكل . . تشهدها فى الميكروب المتناهى الصغر وتشهدها فى سبح النجوم فى السموات .

هى طبيعة . .

وطبيعة الحركة فى الكون تشير إلى هدفية كلية تثير العقل والتفكير .

يقول أينشتين : إن الله لا يمكن أن يكون لاعباً نرداً بالكون .

ويقول القرآن :

« وَما خلقْنا السَّماءَ والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبِينَ » .

(الأنبياء : ١٦)

هو إذن قانون وناموس ونظام مقرر وليس لعباً والإنسان ضمن هذه المنظومة الهائلة المتحركة يتحرك هو الآخر ولا يكف عن السير . وإذا كنا لم نستطع أن نكتشف إلى الآن القانون الموحد لحركة الكون (هو فى نظر أرسطو سير إلى الله) فنحن نعلم على الأقل قانون حركتنا نحن البشر . وأننا منطلقون بشوق لا يهدأ نحو بلوغ الكمال والمثل الأعلى . . وليس المثل الأعلى ولا الكمال المطلق إلا لله :

« ولَهُ المَثَلُ الأعْلَى فِى السَّموات والأرْضِ » .

(الروم : ٢٧)

فنحن سائرون إلى الله أدركنا ذلك أم جهلنا وآمنا أم أنكرنا . . الكل سائر طوعاً أو كرهاً .

« يأَيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلىَ ربِّكَ كَدْحاً فمُلاقِيهِ » .

(الانشقاق : ٦)

والعارف هو الذى يدرك ذلك ويسعى إليه اختيارياً ويباشره بوعى وقصد ذلك هو العارف الكامل الذى اختار السير بكرامة على السير بالعصا .

ومن هؤلاء من يسير هرولة .

ومنهم من يسير وثباً .

ومنهم الطائر الذى اكتشف أن الاستقامة أقصر الطرق وأن الصراط المستقيم أقصر الخطوط إلى مولاه . . وهؤلاء هم أهل الله الذين خلعوا قُمُص التأجيل وشمروا السواعد وكسبوا أعمارهم بالموافقة ، ولم يضيعوها فى المخالفات .

ونسمع من هؤلاء ما يقولون عن طريق السير ومنازله وعلاماته ومنهجه .

ونختار واحداً من عظام المهاجرين إلى الله هو الصوفى العارف محمد ابن عبد الجبار بن الحسن النفرى (وهو الذى كتبت عنه كتابى رأيت الله) يقول النفرى إن مبتدأ الرحلة هو خلع النعلين :

« فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالْوَاد المُقَدَّسِ طُوًى » .

(طه : ١٢)

والنعلان هما النفس والجسد .

والمعنى المراد هو التجرد (التجرد عن النفس والجسد والانخلاع من النفس والجسد) .

يقول له ربه :

« أنا الله لايدخل إلى بالأجسام » .

كيف تخرج من جسمك وأنت فى جسمك ؟ وكيف تخرج عن نفسك وأنت فى نفسك دون أن تقع فى رهبانية خاوية وزهد فارغ مبتذل ؟ !
هذه رحلة النفرى الغريبة والمثيرة .

وأول انخلاع لك عن نفسك وجسدك هو توبة من جميع الذنوب بالمخالفات . . توبة نصوح واستغفار صادق وتوجه سليم لا غرض فيه سوى بلوغ الحق لوجه الحق . . ثم تأخذ أول قطار . . فلا بد لكل رحلة من قطار . وأول قطار هو العلم .

والعلم عند النفرى مطية ودابة تركبها لهدفك والخطر كل الخطر أن تركبك هى وتقودك وتجعل من نفسها هدفاً لك .

والعلم لا يصلح هدفاً (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن الأشياء وروابطها وعلاقاتها) وذاك هدف المحجوبين من العلماء الذين

وقفت همتهم عند إدراك الأشياء وعلاقاتها . . وهم الذين قال عنهم القرآن :

« يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ » .

(الروم : ٧)

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أخرى هى المعرفة .

والمعرفة عند النفرى غير العلم ، فالعلم تنتهى حدوده عند إدراك الجزئيات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التى تربطها .

ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحى منها والميت مخلوقة من خامة واحدة ومركبة بخطة واحدة فكلها بدأت بذرة بسيطة هى ذرة الأيدروجين ، انفرطت وأعيد تركيبها داخل الأفران النجمية الهائلة إلى عديد من التواليف هى ذرات العناصر الـ ٩٣ ومن أحد هذه العناصر ، وهو الكربون نشأت المادة الحية ومنها جاءت عائلة الأحياء كلها .

ثم إن هذه الأحياء من نبات وحيوان وإنسان بنيت أيضاً بخطة واحدة وأسلوب واحد فهى من خلايا متشابهة فى الجميع تتنفس وتتكاثر وتتحرك وتتغذى وتطرد مخلفاتها بطرق واحدة وبأعضاء متشابهة وأجهزة متشابهة وقوانين متشابهة ، ثم هى تموت وتتعفن وتتحلل إلى تراب بتحولات كيمائية واحدة .

وإذا كان الكون بكافة صوره وتواليفه مخلوقاً من خامة واحدة على مقتضى خطة واحدة وأسلوب واحد وقوانين واحدة . . فخالقه بداهة لابد أن يكون واحداً .

وهذا منتهى ما توصلنا إليه رحلة العلم .

ونشد رحالنا بعد بلوغ هذا المدى إلى ذلك الواحد محاولين أن ندركه .

وهنا نكتشف ان دابة العلم لم تعد تصلح لسلوك باقى الطريق ، فنحن أمام حقيقة لايمكن إدراكها بالحواس ولا رصدها بالمجهر ولا قياسها بالبرجل .

إن الواحد الذى نطلبه هو فوق إدراك وسائل العلم ومتعال على الحواس ، وهو من وراء الأسماع والأبصار .

وهنا لابد أن نغير المطية ونستبدل المواصلة ونودع قطار العلم ، فلن يعود للعلم جدوى فسوف نخرج من عالم الجزئيات من عالم الأشياء (عالم الملك والملكوت) إلى عالم الكليات وهو العالم الإلهى (الجبروت) .

ولن تجدى الحواس ولا المنطق العقلى ولا التحليل العقلى ولا الأدوات المعملية فى إدراك العالم الإلهى فلابد من الخروج من ذلك القطار العاجز الذى اسمه العقل والمنطق العقلى والحواس الخمس ، ومن العلم ووسائله ومختبراته إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . المعرفة . . ويفرق بين العلم والمعرفة بأن العلم يبحث فى الكون ، والمعرفة تبحث فى الكون . . العلم بحث فى الأشياء المتعددة ، والمعرفة تبحث فى الواحد . . العلم يبحث فى المادى ، والمعرفة تبحث فى الغيبى . . ولهذا كانت وسائل العلم : المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب والحواس الخمس والتحليل العقلى ، أما وسائل المعرفة فهى القلب والبصيرة والوجدان الصوفى .

ولا يمكن البدء فى رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقيوده وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية ، وهذا يستلزم التجرد من العالم المادى كله .

ولكن العالم المادى هو معشوق النفس ومجالها .

وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا العالم المادى وحيازته وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها

ولهذا كان لا خروج من أسر الحواس ولا خروج من حدود العقل ولا خروج من سيطرة العالم المادى إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها وإخضاعها وتكميمها وقيادتها .

وهو ما يسميه النفرى بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ، ويلخص هذا العبور فى كلمات قليلة بليغة .

اخرج من نفسك ، اخرج من همك ، اخرج من علمك ، اخرج من عملك ، اخرج من اسمك ، اخرج من كل ما بدا (أى من مغريات العالم المادى كله) .

وماذا بعد ذلك .

يكون مطلوبك هو الله .

ومقصودك هو الله .

وهمك هو الله .

وذكرك هو الله .

ونطقك هو الله .

وفكرك هو الله .

وتلك أمور لها علامات ولا تكفى فيها الخلوة والتسابيح .

فعلامة خروجك عن نفسك أن تبذلها للآخرين إنفاقاً وعملا صالحاً وبراً ومودة وجهاداً وقتالا واستشهادا فى سبيل الله .

وعلامة خروجك عن علمك ألا تقول أنا عرفت أنا اكتشفت أنا وصلت ، وإنما تقول الله عرفنى كذا . . الله أفهمنى كذا . الله ألهمنى كذا.

وعلامة خروجك عن عملك ألا تقول أنا عملت أنا أنجزت أنا بنيت أنا أنشأت ، وإنما تقول إن الله وفقنى إلى كذا وأعاننى على كذا وساعدنى على كذا .

وعلامة خروجك عن اسمك ألا تجرى خلف شهرة ولا تسعى إلى منصب ولا تطلب جاهاً ولا تلتمس لنفسك تميزاً وتسلطاً على الآخرين .

وعلامة خروجك عن المغريات المادية ألا تعود للفتنة والملذات سلطة عليك وأن تلزم الطاعة والمنهج والشريعة لا تتعداها إلى شبهة أو حرام .

وعلامة طلب الله ذكراً وفكراً هى الاجتهاد فى العبادة والإقبال عليها حتى تصبح العبادة هوى لا تكليفاً .

وهذا السلوك هو عدتك ووسيلتك لتنوير بصيرتك لتصبح قادراً على تحصيل المعارف الجديدة عن الله وقابلا للتلقى منه والفهم عنه .

لابد لك من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم
وبدون سلوك لا معرفة .

ويقول الصوفية فى لغتهم إن هذا السلوك ضرورى لإعداد المحل وذلك بالتخلية والتحلية ، (تخلية القلب من الأخلاق الذميمة وتحليته بذكر الله) وبذلك يصبح المحل قابلا وصالحاً لتلقى الإشراقات والمعارف الإلهية .

والبحث فى الله يبدأ بالبحث فى الأسماء والصفات والأفعال ، ثم ينتهى إلى الذات فلا فعل للأسماء الإلهية ولا للصفات الإلهية إلا بالذات الإلهية .

الذات هى التى لها القيومية والصمدية والأحدية والاحقية ، بها

يكون للأسماء وجود وأثر .

وما الأسماء إلا متعلقات الذات وهى من قبيل الوجود الممكن ، أما الوجود الواجب الحق فهو للذات وحدها .

وببلوغ رحلة المعرفة إلى الذات تنتهى المعرفة إلى العجز كما انتهى العلم إلى العجز من قبل ، ويدرك العابد عجزه وحيرته كما يدرك أن عجزه عن الإدراك هو عين الإدراك ، فهو أمام ما ليس كمثله شىء .

وهنا يلزم تغيير المطية واستبدال المواصلة .

يلزم الخروج من المعرفة كما خرجنا من العلم إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . الأدب . . ويسميها فى مكان آخر . . الوقفة . . حيث لا سبيل إلى انتقال . . وحيث انتهى الطريق إلى الغيب المطلق .

وهنا يقول النفرى إنه يلزم الخروج من الحرف ومن كل ما يحتوى عليه الحرف (الحرف يحتوى على كل العلوم والمعارف والخواطر والعبارات والمعانى) .

اخرج من الحرف والمحروف .

وبخروج العابد من الحرف والمحروف يخلو قلبه من الخواطر والعبارات والمعانى والحقائق الحسية الأرضية بأكملها ويتطهر ليتجلى الله عليه .

وهنا تأتى مرحلة الرؤية . . والحضرة . . والتجليات فى هذه الحضرة مما لا يقال . . ومما لا يوصف بعبارة .

ولا مدخل إلى هذه الحضرة إلا بخلع النفس تماماً .

ويقول الله لعبده فى تلك اللحظة من التجرد الكامل :

ليس بينى وبينك أنت .

ليس بيني وبينك بين .
أنت منظري .
لا ستور مسدلة بيني وبينك .
أنت تليني وكل شيء فى الكون يأتى بعدك .
أنت فى هذا المقام لا يستطيعك الكون ولا تقوى عليك جنة ولا نار.

وهو مقام الخلافة العظمى التى يكون فيها للعبد ربانية على الأشياء . . ويكون هو العبد الربانى الذى قال عنه القرآن .

« وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمَى » . (الأنفال : ١٧)

ويقول عنه فى الحديث القدسى :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانياً تقل للشىء كن فيكون » .

وفى حديث قدسى آخر .

« تسمع بسمعى وتبصر ببصرى وتبطش بيدى » وهو مقام عيسى عليه السلام حينما أحيا الميت بإذن الله ، وحينما نفخ فى الطين ليكون طيراً فكان طيراً بإذن الله .

ومقام محمد عليه الصلاة والسلام حينما رمى برمية الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ويقول النفرى إن العبد يفعل فى تلك اللحظة بذات الله لا بذاته ، فقد غاب عن ذاته وقمعها وأسكتها وردها لخالقها .

ولهذا يعتبر النفرى أن الخروج من النفس ومن أسر العقل هو الخروج من الخطر ويقول له ربه وقد خرج من الاثنين .

لقد خرجت من الخطر :

«لا خروج من العبودية أبداً خلال هذه المراحل ، وإنما هناك مزيد من

العبودية فى كل مرحلة .

وفكرة العبد الربانى عند النفرى لا تعنى أبداً أى خلط بين العبودية والربوبية ، ولا تعنى خروج العبد من عبوديته ، ولا تعنى إضفاء صفة الخالقية على المخلوق فى ذاته . وانما هو فضل من الله وقوة يفيضها الله على العبد المقرب بإذنه .

يقول الله لعيسى :

« وإذْ تَخْلُق مِن الطِّين كَهَيْئَة الطَّير بإذْنى فَتَنْفُخُ فِيها فَتكُونُ طَيراً بإذْنِى وتُبْرِئُ الأَكْمهَ والأَبْرصَ بإذْنِى وإذ تُخْرِجُ المَوْتَى بإذْنى » .

(المائدة : ١١٠)

فكل ما يحدث إنما يحدث بالإذن الإلهى . . ولا يصح أن نخلع عن العبد عبوديته أبداً إنما هو مجرد ارتفاع إلى رتبة شرفية من رتب العبودية تتم فيها الخلافة ويصبح العبد فيها خليفة حقًّا وحاملا لأختام الملك ومنفذاً للأوامر بإذنه وهذه هى مرتبة العبد الربانى .

وهذه الحالة من القـــرب من الله (حالة قـاب قوسين أو أدنى) هى حالة غيبوبة وذهول تتوحد فيها الجوارح فيصير سمع العارف بصره وعينه أذنه ويعود أوله آخره وآخره أوله وينشق عن جسده الضريح وتتروحن جميع أعضائه وخلاياه ويلطف ويختفى ويصبح نوراً فى نور . . وهى حالة من الصفاء والنورانية والعلوية تسكر صاحبها وتذهله فيخيل إليه أنه الله .

ومن هنا جاء هذا التخليط والشطح الذى امتلأت به كتب الصوفية والكثير العجيب مما نطقوا به فى تلك الحالات .

« سبحانى ما أعظم شانى » البسطامى .

« أنا الحق » . . « أنا الله » . . « ما فى الجبة إلا الله » **الحلاج** .

« إذا عرفت الله فما عرفت سواك » **ابن عربى** .

« هل فى الدارين غيرى » **الشبلى** .

أأنت أم أنا هذى العين فى العين   حاشاى حاشاى من إثبات اثنين

ابن عربى

« لا فرق بينى وبين ربى إلا أنى تقدمت بالعبودية » .

« أنا أصغر من ربى بسنتين » .

وكل هذا وأمثاله هو من صنوف التخليط والهذيان مما لا يصح الوقوف عنده . . وقد أدانه أصحابه فقال ابن عربى عن هذا الكلام إنه سوء أدب وسقوط عن رتبة التمكين ، واستعاذ بالله من الخذلان وسوء الخاتمة . . وتبرأ فى مقدمة الفتوحات من أى كلمة تخرجه عن العبودية والافتقار والذل والمسكنة لربه . . وتبرأ تماماً من أى قول بالحلول أو الاتحاد أو التجسد .

وللمكزون السنجارى أشعار غريبة عن هذه الحالة النورانية التى ذاقها . . فتراه يقول :

صفا جسدى حتى بدا منــه قلبه   وشف إلى أن بان ما فيــه من سر

فغيب سر القلب قلبى وقالبى   كما غاب لون الماء والكأس فى الخمر

ويقــول :

فصار بســـط الورى بقبضى   والخـــلق والأمــر فى كيــانى

فلا وجـــود سوى وجـــودى   وكـل باق ســـواى فـــانى

ويقـــول :

أصبحت فى الكـــون بـــلا حَيِّزٍ   وكل ما فى الكون فى حيزى
وخـــارج العـــالم فى داخـــلى   وقـدرة القـــادر فى مَعْجـــزى
فأين أهـــل الأيـــن فى دارتى   والفلك الأطلس فى مـــركزى

ويقول عن محاورة غريبة مع ربه :

ولقد باســـطنى فى خلـــوة   أصبح البسط بها فى قبضتىّ
فشهدت النشـــأة الأولى بهـــا   فانثنى عنى المـــرا فى نشأتىّ
وتفاوضـــنا حديثاً حســـدت   كل أعضـــائى عليـــه أذنىّ
قلت هل عودا لأعياد الصفا ؟   قال كى تقضى وتقضى أجـــلىّ
قلت كى تشتفى الآلام من جسدى ؟   يشفى فؤادى ؟ . . قال كَىّ
قلت بعد القرب ما أبعدنى عنك . . ؟   قال الشـــك والـــرد عَـــلىّ

وما ورد فى كتب الصوفية من أشعار ومواجيد عن هذه الحالة كثير . وتواتره وتشابه ما فيه من أوصاف يدل على أن هذه الحالة من القرب من الله تصاحبها نشوة عظمى بالفعل . . وإن هذه النشوة تذهب اللب وتسلب العقل وتخرج العارف عن صوابه .

والنظرة السليمة إلى هذا التراث الشعرى . . أن نقرأه كوجدانيات لا كحقائق عرفانية . . إذ لا توجد لغة متاحة ولا عبارات تسمح بأى وصف عرفانى حقيقى . . فالموقف قد تجاوز قدرة الحرف والرمز والمجاز والإشارة . وبلغ حالة البهت والذهول .

ونحن لا نحاسب العاشق محاسبة علمية عرفانية حينما يقول لحبيبته فى لحظة وجد . . أنا أنت . . كما وأننا لا نحاسب الشاعر حينما يقول .

شعرت أنى عصفور . . أو أنى شمس أو أنى جبل .

ومشكلة الصوفى أنه فنان إلى جانب كونه رجل دين . . وهو بحكم تكوينه الوجدانى شاعر وأديب وصاحب خيـــال وعاشق له بدوات . . وهو أحياناً فيلسوف أيضاً مثل ابن عربى . . وهذا سر الكثير من الغموض والشطح والاستشكالات المعضلة فى كتب الصوفية .

والقارئ يجد نفسه فى أغلب الحالات أمام موازين ذوقية لا موازين علمية وأمام أمور لا تفهم إلا مكابدة .

ولهذا سوف تظل كتب الصوفية رسائل خاصة أشبه بالرسائل الشفرية يتخاطب بها قوم من أهل الأذواق والمواجيد إلى خاصتهم ممن يفهمون عنهم الإشارات والرموز .

اسمع من المكزون يروى لك الوسيلة التى وصل بها إلى الله فيلخص أسرار الطريق فى كلمات .

« خوف من عالم الحس ومحاربة لشيطان النفس وقرع بيد الإخلاص من أبواب اللطف الخفى » .

ما هو ذلك القرع بيد الإخلاص . وما أبواب اللطف الخفى

تلك لغة القوم العالية الجميلة التى لا يفهمها إلا من كابد مثلهم وأحب مثلهم .

وما أجملها من لغة وما أحفلها بالظلال والمعانى والأغوار البعيدة والهمس الحميم الموحى .

جعلنا الله من أهل هذا الحب السامى ومن أهل تلك الأشواق الرفيعة القدسية

الفهـــرس

صدر للمؤلف

١ – الله والإنسان : ١٩٥٥
٢ – أكل عيش : ١٩٥٢ – ١٩٥٤
٣ – عنبر ٧ : ١٩٥٥ – ١٩٥٧
٤ – شلة الأنس : ١٩٦٢ – ١٩٦٤
٥ – رائحة الدم : ١٩٦٥ – ١٩٦٦
٦ – إبليس : ١٩٥٧ – ١٩٥٨
٧ – لغز الموت : ١٩٥٨ – ١٩٥٩
٨ – لغز الحياة : ١٩٦٧
٩ – الأحلام : ١٩٦١
١٠ – أينشتين والنسبية : ١٩٦١
١١ – فى الحب والحياة : ١٩٦١ – ١٩٦٦
١٢ – يوميات نص الليل : ١٩٦١ – ١٩٦٦
١٣ – المستحيل : ١٩٦٠
١٤ – الأفيون : ١٩٦٤
١٥ – العنكبوت : ١٩٦٥
١٦ – الخروج من التابوت : ١٩٦٥
١٧ – رجل تحت الصفر : ١٩٦٦
١٨ – الإسكندر الأكبر : ١٩٦٣
١٩ – الزلزال : ١٩٦٣
٢٠ – الإنسان والظل : ١٩٦٤
٢١ – غـوما : ١٩٦٨
٢٢ – الشيطان يسكن فى بيتنا : ١٩٧٣
٢٣ – الغابة : ١٩٦٣
٢٤ – مغامرة فى الصحراء : ١٩٦٩
٢٥ – المدينة (أو حكايات مسافر) : ١٩٥٦ – ١٩٦٨
٢٦ – اعترفوا لى : ١٩٥٦ – ١٩٥٩
٢٧ – ٥٥ مشكلة حب : ١٩٦٠ – ١٩٦٦
٢٨ – اعترافات عشاق : ١٩٥٦ – ١٩٦٦
٢٩ – القرآن محاولة لفهم عصرى : ١٩٦٩
٣٠ – رحلتى من الشك إلى الإيمان : ١٩٧٠
٣١ – الطريق إلى الكعْبة : ١٩٧١
٣٢ – الله : ١٩٧٢
٣٣ – التوراة : ١٩٧٢
٣٤ – الشيطان يحكم : ١٩٦٥ – ١٩٧٠
٣٥ – رأيت الله : ١٩٧٣
٣٦ – الروح والجسد : ١٩٧٣
٣٧ – حوار مع صديقى الملحد : ١٩٧٤
٣٨ – الماركسية والإسلام : ١٩٧٥
٣٩ – محمد : ١٩٧٥
٤٠ – السر الأعظم : ١٩٧٥
٤١ – الطوفان : ١٩٧٦
٤٢ – الأفيون . سيناريو : ١٩٧٦
٤٣ – لماذا رفضت الماركسية : ١٩٧٦
٤٤ – من أسرار القرآن : دراسة . : ١٩٧٦
٤٥ – الوجود والعدم : ١٩٧٦

مجموعات المؤلف الكاملة

٤٦ – قصص مصطفى محمود : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٧ – روايات مصطفى محمود : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
٤٨ – مسرحيات مصطفى محمود : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٩ – رحلات مصطفى محمود : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
٤٧ – روايات مصطفى محمود : صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠